وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٠﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

مذعنين: أذعنَ الرجلُ: أسرعَ الطاعةَ؛ وخضَع وذلَّ وانقادَ (الأقرب).

يحيف: حافَ عليه: جارَ وظلَم (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن بعض الناس يدّعون بأنهم مع الله والرسول، ولكنهم يولّون الدبر وقت الاختبار؛ وهذا يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين بل هم كالشيء الرديء. إنهم إذا كانوا موقنين بتلقي عطاء أو منفعة أتوا مسرعين، وإذا لم يتوقعوا شيئًا فرّوا مستعجلين. مما يدل على أن في قلوبهم مرضًا، أو أنهم لم يؤمنوا أصلاً، أو يخافون أن طاعتهم لله تعالى ورسوله ستؤدي بهم إلى الخسران. وعلى النقيض تجد المؤمنين أنهم كلما دُعوا إلى حكم الله ورسوله قالوا سمعنا وأطعنا،

مؤكدين طاعتهم بعملهم، فيصبحون في نهاية المطاف من المفلحين، لأن المرء يفوز دائمًا نتيجة طاعته لله ورسوله وخشيته وتقواه.

إن هذه الآيات تقدّم لنا قاعدة هامة جدًا بخصوص الرقي القومي، حيث بين الله تعالى أن المسلمين لن يحرزوا الرقي القومي ما لم يحكّموا اللهَ ورسوله في النـــزاعات التي تنشأ فيما بينهم. إن من علامات نفاق المرء وعدم إيمانه أن يطيع اللهَ تعالى ورسوله إذا رأى في ذلك نفعًا، وإذا خاف ضررًا رفض حكمَ الله ورسوله. والإسلام لا يجيز هذا النفاق أبدًا، ويوضح للمؤمنين أنهم لن يكونوا صادقين في إيمانهم إلا إذا أطاعوا محمدًا رسول الله ﷺ في الأمور الدينية، وليس هذا فحسب، بل عليهم أن يطيعوه في الأمور السياسية والاجتماعية أيضًا، ويجعلوه حَكَمًا فيها.

والواقع أن الإسلام ليس من الأديان التي تحصر نطاق الدين في العبادات والعقائد والأفكار فقط، دون أن تتدخل في الأمور الدنيوية للناس باعتبارها خارجة عن نطاق الدين. إن مثل هذه الأديان تعلّم الناس كيف يعبدون ويصومون ويتصدقون، ويؤدون حقوق الناس، ولكنها لا تأمرهم فيما يتعلق مثلاً بالنظام والاقتصاد والمعاملات والإرث والعلاقات الدولية وما إلى ذلك. والمسيحية واحدة من هذه الديانات. والواقع أن من أهم الأسباب التي أدت إلى اعتبار أهلها الشرعَ لعنةً (رسالة بولس الأولى إلى أهل غلاطية ٣: ١٣)، أنهم يريدون فصل أعمال العباد عما يفرضه الدين من شروط وقيود. يقولون إنما ينحصر واجب الدين في أن يأمر العباد بأن يعبدوا ويصوموا ويعتنوا بالفقراء ويؤلّهوا المسيح، ولا علاقة للشرع بالقضايا الأخرى من قتل وفساد وسرقة وسطو واقتصاد ومعاهدات بين الشعوب وما إلى ذلك. فترى أنهم إذا سُئلوا عن نصيب الذكور والإناث في أموال الإرث قالوا لا علاقة للشرع بهذه الأمور، إنما هو من مسؤولية برلمانات القوم أن تسن القوانين حسبما ترى فيه المصلحة القومية. ونفس الحال بالنسبة إلى الربا؛ حيث يقولون إنهم ما داموا قد قرروا التعامل بالربا سواء في صورة المال أو السلع فلا يحقّ للدين أن يحرّم علينا ذلك. إذًا، فإنهم يكرهون الأحكام التي يصدرها الدين فيما يتعلق بنظام حياة الناس كراهة شديدة، ويعتبرون الشرع لعنة.

وعلى النقيض هناك أديان أخرى قد وسّعت نطاق نفوذ الدين، وبينت القواعد والقوانين المتعلقة بشتى أعمال البشر وعلاقاتهم ونظام الحكم وما إلى ذلك. والذين يعتنقون هذه الديانات لا بد لهم من الاعتراف بأن من حق الدين أن يتدخل في معاملات الناس وحكم البلاد، وأن عليهم – أفرادًا وجماعات – أن يطيعوا ما يأمر به الدين بهذا الصدد تمامًا كما يطيعونه فيما يتعلق بالعقائدً والأحكام الفردية. ويمكن أن نقدم الدين اليهودي كمثال على ذلك. فكل دارس للشرع اليهودي سيجد فيه مثل هذه الأحكام بكثرة، فقد ذكر عقوبة القتل مثلاً، وكذلك عقوبة السرقة وقواعد الحرب وتعاليم تقديم القرابين، وشتى الأحكام الأخرى بصدد المعاملات من بيع وتجارة وما إلى ذلك. باختصار إن الدين اليهودي يتدخل في أمور الحكومة والسياسة.

هلم الآن لنر فيما إذا كان الإسلام من النوع الأول من الأديان أم من النوع الثاني. إن النظرة العابرة في القرآن الكريم والحديث الشريف تكشف لنا أن الإسلام هو من النوع الثاني من الأديان، إذ لم يكتف ببيان بعض العقائد والأعمال المتعلقة بالأفراد فحسب، بل تناول أيضًا الأحكام التي تتعلق بالحكومة والقوانين. فلم يأمر بالصلاة والصيام والحج والزكاة فقط، بل أصدر أيضًا الأوامر التي تتعلق بالحكومة وقانون البلاد. فتحدّثَ مثلاً عن علاقات الزوجين، وبيّن ماذا على الزوجين أن يفعلا إذا تشاجرا، وما هي التدابير التي يجب اتخاذها للصلح بينهما، وما هي نوعية العقاب إذا اضطر المرء ليعاقب زوجته عقابًا بدنيًا، وإلى أي مدى يعاقبها. كما تحدث القرآن الكريم عن القرض والدَّين، فبيّن عدد الشهود الذين لا بد من توافُرهم عند الدَّين، وفصّل أنواع الاقتراض ما يجوز منها وما لا يجوز. كما ذكر قوانين التجارة والمعيشة التي عليها بناء القضاء، فأخبرنا نوعية الشهود وعددهم، وما هي الأمور التي يجب اعتبارها عند الشهادة. كما أعطى الإسلام عدة أحكام بصدد القضاء، وبين للقضاة طريق فصل القضايا. ثم إنه فرض عقوبات بدنية على الأفعال التي تتعلق بالناس عادة، مثل القتل والسرقة. كما بين قوانين الميراث وتفاصيل الضرائب والشروط المتعلقة بالضرائب الحكومية، مع بيان الخيارات التي

تُمنح للحكومة بصدد إنفاق الضرائب. كما بين الإسلام قواعد المعاهدات التي يجب على الطرفين مراعاتها. كما وضع الضوابط للعلاقات الدولية. ثم بين حقوق العمّال وأصحاب الأعمال. وذكر القواعد والآداب المتعلقة بالطرق والشوارع، وبحسب هذه القاعدة لما عُمّرت بغداد جُعلت الطرق الرئيسية بعرض ٦٠ قدمًا والشوارع بعرض ٣٠ قدمًا. وباختصار فإن الإسلام قد بين جميع الأمور التي تتعلق بالحكم والسياسة. ثم إنه بيّن قانون التفقه أيضًا الذي يرشد الناس في سن القوانين.

إذًا، فالذي يدخل في الإسلام ويعلم أنه قد أصدر الأحكام المفصلة بصدد السياسة والحكم، فلا يمكنه أن يقول ما علاقة الدين بهذه الأمور؟ بل لا بد له من اتباع الرسول ﷺ فيما فعله وقاله بصدد الحُكم والسياسة مثلما يتّبع أحكامه ﷺ حول الصلاة والزكاة وغيرهما. ذلك لأن الله الذي أمرنا بالصلاة والصيام والحج والزكاة، هو الذي أنـــزل هذه الأحكام المتعلقة بالسياسة والنظام فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(النور: ٥٢). وحيث إن الله تعالى قد اشترط هنا لصحة الإيمان قبول قرار الرسول ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى قال إنما المفلحون الذين يقولون سمعنا وأطعنا ولا يخالفون قرار الرسول ﷺ؛ فهذا يعني أن الذي لا يطيع أوامره ﷺ فإن الله تعالى سيؤاخذه.

وقد أكد الله تعالى هذا المعنى نفسه في قوله ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٦).. أي أن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مؤمنين حقًا ما لم يتخذوك، يا محمد، حَكَمًا في النـــزاعات التي تقع بينهم، وما لم يرضوا بقضائك بقلوب صادقة. لقد بين الله تعالى هنا أمرين غاية في الأهمية: أولهما أن الله تعالى قد اعتبر الرسول ﷺ هنا القاضي النهائي، مبينًا أنه بعد قضاء الرسول ﷺ لن يكون لأحد الحق في استئناف الدعوى، ومن الواضح أن إيتاء الله رسولَه ﷺ حق اتخاذ القرار النهائي يدل على أنه ﷺ قد مُنح سلطةَ الحكم؛ وثانيهما أن قول الله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا

مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يؤكد أن الرضا والتسليم بقرار الرسول ﷺ جزء من الإيمان كالصلاة والصيام والحج والزكاة. لنفترض أن زيدًا وعمرًا يتشاجران، ويدعي أحدهما بأن له على الآخر كذا من المال، فيرفض الآخر ادعاءه؛ فيذهبان إلى الرسول ﷺ ليحكم بينهما، فيحكم لصالح زيد. فإذا لم يرض عمرو بحكمه ﷺ فإن الله تعالى سيقول له لم تعد مؤمنًا. فبرغم أن زيدًا كان يصلي ويصوم ويؤدي الزكاة ويحج البيت فإنه إذا لم يقبل حكم الرسول ﷺ في قضيته فإن الله تعالى سيفتي عليه بعدم الإيمان. إذًا، فكلمة ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ أوضحت أن الله تعالى يعتبر طاعة الرسول ﷺ أيضًا جزءًا من الدين وليس خارجه. وهذا الموضوع نفسه قد بينه الله تعالى في الآيات التي هي قيد التفسير من سورة "النور"، حيث أوضح للمؤمنين أنه لا قيمة لمجرد ادعائكم بالإيمان بالله ورسوله، وإنما يحظى إيمانكم بالقبول عندنا إذا جعلتم الله ورسوله حَكمًا في كل أمر، ثم لا تتجاسروا على مخالفة حكمه في أية قضية.

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

التفسير: أي أن هؤلاء يحلفون لك بكل شدة أنك إذا أمرتهم بالقتال فسيقاتلون حتمًا، فقُلْ لهم: لا فائدة من هذه الأيمان المؤكدة، إنما المطلوب منهم هو الطاعة كطاعة المؤمنين، إذ بإمكان كل منافق أن يحلف كذبًا. فأطيعوا الله ورسوله ولا تتكلموا بجرأة وجسارة. إن المؤمن يؤكد بعمله طاعته لله ورسوله، ولا يكتفي

بادعاء الإيمان بلسانه فقط. وإذا ما أعرض هؤلاء عن هذا النصح فليس الرسول بمسؤول عن ذلك، إنما هو مسؤول عن تبليغ الرسالة فقط، وهم الذين تقع عليهم مسؤولية العمل بهذه الرسالة. وإننا نؤكد لهم أنهم إذا أطاعوا محمدًا رسول الله ﷺ في هذه الأمور فلن يتضرروا أبدًا، بل سيحققون الفلاح والنصر. وها إننا نوضح لهم ثانية أنه ليس على الرسول إلا البلاغ المبين، وأنهم هم المسؤولون عن اتخاذ الخطوة العملية وبذل المجهود وتقديم التضحيات. فلا يفرحوا بأنهم قد جاءهم رسول من عند الله تعالى فوضعوا أيديهم في يده في الظاهر. كلا، بل إن الله تعالى ينظر إلى أعمالهم وسيعاملهم بحسبها. أما إذا قالوا بأفواههم بأنهم مستعدون لقتال العدو مع الرسول ﷺ في كل موطن، ولكن تزعزعت أقدامهم عند الاختبار العملي وشقَّ عليهم أن يضحّوا بأنفسهم في سبيل الله تعالى، فليعلموا أن إيمانهم لا يساوي عند الله تعالى حبة خردل. إن مثل موسى وأصحابه أمامهم، لقد ادعوا بطاعة موسى، ولكنه لما أمرهم بالهجوم على أرض كنعان قالوا ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). فهل تعرفون نتيجة ذلك؟ لقد ظل قومه تائهين في الصحراء أربعين سنة ولم يستطيعوا الدخول في أرض كنعان إلا بعد أن صاروا مستعدين فعلاً لتقديم التضحيات.

فالأصل هو طاعة الله ورسوله لأن جميع أنواع الفلاح منوطة بذلك. والأمة التي تتمتع بروح الطاعة تنجح رغم ضعفها، أما الأمة التي لم تبق فيها روح الطاعة فتفشل رغم كثرة عددها.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾

التفسير: بدءًا من هذا الآيات يتحدث الله تعالى عن المكافآت والنعم التي ينالها المسلمون إذا أطاعوا محمدًا ﷺ. فقال إن الذين آمنوا بالخلافة وعملوا بما يجعلهم صالحين للخلافة فإن الله تعالى يعدهم بأنه سيجعلهم خلفاء في الأرض كما جعل الذين كانوا من قبلهم، وسيوطد الدين الذي رضي به لهم، وسيبدّل كلّ خوفهم أمنًا، فيعبدونني ولا يشركون بي شيئًا. ولكن الذين يكفرون بالخلافة فيما بعد، فلن يتمتعوا بهذه النعمة بل سيُعَدّون خارجين على النظام.

لقد أصدر الله تعالى في هذه الآية قراره النهائي فيما يتعلق بمصير المسلمين، فوعدهم أنهم لو آمنوا بوجود الخلافة، ساعين لذلك كما ينبغي عليهم، فسيقيم الله بينهم الخلافة كما أقامها في الذين خلوا من قبل، وسيثبّتهم من خلال الخلافة على دينهم الذي اختاره لهم، وسيقوّي هذا الدين، وسيبدّل خوفهم أمنًا، مما يجعلهم عابدين لله الأحد دائمًا ولا يشركون به شيئًا.

ولا يغيبنّ عن البال أن هذا وعدٌ وليس نبوءة. فلو أن المسلمين لم يثبتوا على إيمانهم بالخلافة وتركوا العمل الصالح الذي هو ضروري لقيام الخلافة، فلن يعودوا مستحقين لهذا الإنعام، ولن يليق بهم عندها أن يقولوا بأن الله تعالى لم ينجز وعده.

ثم يقول الله تعالى للمؤمنين بعد ذكر موضوع الخلافة مباشرة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.. أي حينما نقيم بينكم نظام الخلافة فمن واجبكم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتطيعوا رسول الله. وكأنهم إذا ساعدوا الخلفاء في تمكين الدين فقد أطاعوا الرسول. وهذا هو نفس الموضوع

الذي قد بينه النبي ﷺ بقوله: "مَن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني". (مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية)

كما أن الله تعالى قد نبّه بقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى أن السبيل لطاعة الرسول ﷺ عند قيام الخلافة أن تقيموا الصلاة من أجل تمكين الدين ونشره، وتؤتوا الزكاة وتطيعوا الخلفاء طاعة كاملة.

كما لفت الله تعالى بذلك نظر المسلمين إلى أنه لمن المحال بدون الخلافة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حقًّا. فقد كان في عهد النبي ﷺ نظام لجمع الزكاة، ولما توفي ﷺ وصار أبو بكر خليفة، وامتنع معظم العرب عن أدائها بحجة أن حكم الزكاة كان خاصًا بالنبي ﷺ وليس لخلفائه، رفض أبو بكر رضي الله عنه دعواهم هذه وقال: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه لرسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه" (تاريخ الخميس، الجزء الثاني: ذكر بدء الردّة، والطبري الجزء الرابع: بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي). ونجح أبو بكر في هذه المهمة فقام نظام الزكاة على قواعده من جديد، وظل قائمًا في زمن الخلفاء الراشدين الآخرين بعده. ولكن لما انتهت الخلافة الراشدة بين المسلمين لم يعد هناك نظام لجمع الزكاة. وهذا ما نبهنا الله إليه في هذه الآية أيضًا بأن المسلمين لا يمكنهم العمل بهذا الأمر بدون نظام الخلافة بينهم. ذلك لأن الزكاة بحسب تعاليم الإسلام تؤخذ من أغنيائهم، وتُوزَّع على الفقراء بواسطة النظام؛ ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هناك نظام، لأن الشخص الواحد لو أنفق مال زكاته على بعض الفقراء فلن يأتي إنفاقه بنتائج طيبة كالتي يمكن أن تأتي إذا جُمعت أموال الزكاة من المسلمين كلهم ثم وُزعت على فقرائهم كلهم.

وبناء على هذه المسألة، فإن كلّ الملوك المسلمين الذين أنفقوا من بيت المال على أنفسهم من أجل حياة البذخ والترف، وشيدوا قصورا فخمة، وبنوا متنـــزهات عظيمة، يُصبحون مجرمين. ولو أن الجماهير هي التي طالبتهم ببنائها لجاز لهم ذلك، شريطة أن يكون دون حد الإسراف، ولكن الجماهير لم تطالبهم بذلك، كما أن هذه النفقات تجاوزت حد الإسراف أيضا؛ لذلك فكل هذه الأعمال كانت غير مباحة وتجعل أصحابها آثمين، إذ لم يكن الإسلام بحاجة إلى

"عرش الطاووس" ولا إلى "تاج محل" ولا إلى "قصر الزهراء"* ولا إلى القصور الفخمة التي بناها هارون الرشيد في بغداد. إن كل هذه الأشياء لم تُظهر عظمة الإسلام، بل دلّتْ على مجد شخصيات وعائلات معينة، ولذلك أدت إلى هلاك تلك العائلات.

كذلك لا يمكن إقامة الصلاة بدون الخلافة حقًّا، ذلك لأن أهمّ الصلوات هي صلاة الجمعة التي تكون فيها الخطبة التي يتم بها تذكير الناس بمصالح الأمة وضروراتها. فإذا لم يكن ثمة نظام الخلافة فكيف يطّلع الناس على تلك الأمور. فمثلاً كيف يمكن لفروع جماعتنا في باكستان أن تعرف ما يتمّ في الصين واليابان وغيرها من البلاد من أعمال ونشاطات بصدد إشاعة الإسلام؟ وما هي التضحيات التي يطالبهم الإسلام بها؟ إذا كان للمسلمين جميعا مركز أو خليفة واجب الطاعة، فإنه سيتلقى التقارير من شتى أنحاء العالم حول ما يتم هناك من أعمال ونشاطات لنشر الإسلام، فيُخبر الناسَ بأن الإسلام اليوم بحاجة إلى كذا وكذا من التضحيات والخدمات. ولذلك فقد أفتى الأحناف أن الجمعة لا تجوز بدون سلطان مسلم (المختصر للقدوري: باب صلاة الجمعة). والحكمة في هذه الفتوى هي ما قد بينته.

ونفس الحال بالنسبة لصلاة العيدين، إذ الثابت من سنّة الرسول ﷺ أنه كان يلقي خطبة العيد فيما يتعلق بما تحتاج إليه الأمة دومًا. ولكن إذا لم يكن ثمة نظام

---

* **"عرش الطاووس"**: اتخذه "شاه جهان" الإمبراطور المغولي في الهند، فأخذه "نادر شاه" ملكُ الأفغان عندما غزا الهند، ثم ظل هذا العرش عند الملوك الإيرانيين.

"تاج محل": ضريح فخم في مدينة "أغرة" بالهند أقامه الإمبراطور المغولي "شاه جهان" لزوجته الملقبة بـــ "ممتاز محل".

"قصر الزهراء": أنشأه عبد الرحمن الناصر الأموي باسم جارية كان يهواها في مدينة "الزهراء" قريبًا من قرطبة بالأندلس بمبالغ كبيرة. جلب لبنائه الرخام الأبيض والأخضر والوردي من أفريقيا وبلاد الإفرنج. وقد أُحرقت المدينة بما فيها حوالي سنة أربعمئة هجرية على أيدي البربر واندثرت معالمها ورسومها. *(المترجم)*

الخلافة فكيف يعرف الفرد الواحد ما هي تلك الضرورات، وكيف يمكن ذكرُها في خطبه؟ كلا، بل من الممكن تماما أن يظل بنفسه منخدعًا لجهله بالظروف المتجددة، فيدفع الآخرين أيضا إلى الجهل. لقد قرأت في بعض الكتب أنه قبل سبعين أو ثمانين سنة خرج أحد المسلمين سائحًا في منطقة "بيكانير"، ودخل مسجدًا في يوم جمعة، فوجد أن الإمام بعد أن قرأ في البداية شيئا من الخُطب الجاهزة المتداولة باللغة الفارسية قال للمصلين: تعالوا الآن نرفع الأيدي لندعو لأمير المؤمنين ملكِنا "جهانغير". فكان هذا الإمام المسكين لا يعرف أن "جهانغير" قد توفي قبل مئات السنين، وأن الإنجليز يحكمون الهند الآن!

فالجمعة التي هي أهمّ الصلوات إنما يتمّ أداؤها على أحسن وجه إذا كان بين المسلمين نظام الخلافة. ولما كانت جماعتنا تتمتع بنظام الخلافة فترى أن خطبي تكون بفضل الله تعالى بحسب مقتضيات الظروف السائدة دائمًا، وهناك كثير من المسلمين من غير جماعتنا الذين يتأثرون من هذه الخطب كثيرا.

والواقع أن من واجب القائد توجيه الناس وإرشادهم، ولكن لا يمكن أن يقوم بهذا التوجيه إلا الذي يتلقى الأخبار من شتى أقطار العالم، ويكون مطّلعًا على مجريات الأحداث. ولا يتيسّر مثل هذا العلم من خلال الجرائد فقط، لأنها تنشر أخبارًا كاذبة أحيانًا، كما أن الصحفيين لا يلتزمون ببيان الأحداث كاملة. ولكن دُعاتنا منتشرون في معظم أنحاء العالم، كما أن أفراد جماعتنا موجودون في كل بقعة من بقاع الأرض؛ ولذلك أتلقى منهم أخبارا مؤكدة دائما، فأستفيد منها وأقوم بتوجيه الجماعة بطريق سليم بفضل الله تعالى. فثبت أن إقامة الصلاة أيضا لا يتم بدون الخليفة على ما يرام.

كذلك إن طاعة الرسول ﷺ أيضا مستحيلة بدون الخلافة، لأن الغرض الحقيقي من طاعة الرسول ﷺ أن ينخرط الجميع في سلك الوحدة. لقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – يصلّون، ومسلمو اليوم أيضا يصلّون، وكان الصحابة يحجّون وكذلك مسلمو اليوم أيضا يحجّون، فما الفرق بين الصحابة ومسلمي اليوم يا ترى؟ إنما الفرق أن روح الطاعة كانت قد بلغت حد الكمال في الصحابة

لكونهم تابعين للنظام. فكلما أمرهم النبي ﷺ بشيء عملوا به دونما تردد. ولكن روح الطاعة هذه مفقودة في المسلمين اليوم. إنهم يصلّون ويصومون ويحجّون، ولكن لا توجد فيهم الطاعة، لأنها لا تتأتى بدون النظام. إذًا، فكلما تكون هناك خلافة تكون هناك طاعة الرسول أيضًا، لأن طاعة الرسول لا تعني أن نصلّي ونصوم ونحجَ، إذ تدخل هذه الأحكام في طاعة الله تعالى، إنما المراد من طاعة الرسول ﷺ أنه إذا أعلن أن هذا أوان التركيز على الصلوات فعلى الجميع أن يركّزوا على الصلوات خاصة، وإذا قال إننا الآن بحاجة إلى التركيز على أداء الزكاة والتبرعات فعلى الجميع أن يركزوا على ذلك، وإذا قال إن هذا وقت التضحية بالنفس والوطن فعلى الجميع أن يهبّوا للتضحية بنفوسهم وأوطانهم.

إذًا، فهذه الأمور الثلاثة هي جزء لا يتجزأ عن الخلافة. ويقول الله تعالى لنا: إذا لم تكن هناك خلافة فستضيع صلاتكم، وتضيع زكاتكم، وتخلو قلوبكم من طاعة الرسول. وبما أن جماعتنا معتادة على العيش تحت النظام، وأفرادها مطيعون بفضل الله تعالى، فلو تمّ نقلهم إلى عهد محمد رسول الله ﷺ لوجدتَهم يتحلّون بطاعة كطاعة الصحابة، ولكنك لو نقلت – في عالم تصورك وخيالك – أحدًا من المسلمين غير الأحمديين إلى العهد النبوي لوجدتَه متعثرًا عند كل خطوة، ويقول مهلاً، فأنا لم أفهم هذا الأمر، بل سيقول كما قال أحد الأفغان: "انظروا، لقد نقض محمد (ﷺ) صلاته، إذ قد ورد في كتاب "القدوري" أن الحركة الكبيرة تفسد الصلاة"* (المرجع السابق). وهكذا سيرفض الطاعة في بعض الأمور. ولكنك لو أخذتَ أحدًا من المسلمين الأحمديين إلى العهد النبوي فلن يجد نفسه غريبًا عن

* يشير هنا حضرة المفسر ﷺ إلى طريفة شائعة في بلادنا وهي أن أحد الأفغان كان قد قرأ في كتاب "القدروي" – وهو كتاب في الفقه – أن المصلي إذا قام بحركة كبيرة في الصلاة، علاوة على ما يوجد فيها من حركات، فسدتْ صلاته. ثم ذات يوم سمع خطيبًا يقول: كان النبي ﷺ يصلي وحفيده الحسن ﷺ يلعب بجنبه، فأخذ يبكي، فحمله النبي ﷺ؛ فلم يملك الأفغاني نفسه لدى سماع قول الخطيب وقال بصوت عال: انظروا، قد أفسد محمد (ﷺ) صلاته! *(المترجم)*

الناس، بل سينسجم مع المحيط فورًا كما تنسجم قطعة من الماكينة في مكانها، وسيصبح بمجرد وصوله هناك كواحد من الصحابة، فيطيع النبي ﷺ في كل ما يأمره به بدون تردد وسؤال، ولن يسبب له ما قاله بعض من الأئمة الأربعة أي عثار، لأنه يدرك أن الحكم الحقيقي ما قاله وفعله الرسول ﷺ، وليس الأئمة الأربعة إلا غلمانًا له بل هم تلاميذُ تلاميذه ﷺ.

هذه الآية التي تسمى "آية الاستخلاف" تبين الأمور التالية:

الأول: إن الإنعام المذكور فيها إنما هو وعدٌ بحتٌ.

والثاني: إن هذا الوعد مقطوع للأمة ما دامت مؤمنةً تعمل الصالحات.

والثالث: إن هذا الوعد يهدف إلى التالي: (١) أن يتلقى المسلمون نفس المكافآت والنعم التي قد تلقتها الأمم السابقة لقوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. (٢) وأن يمكّن الله تعالى لهم دينهم. (٣) وأن يبدّل الله تعالى خوفهم أمنًا. (٤) وأن يتم القضاء على الشرك وتقام عبادة الله تعالى.

وقد قال الله تعالى في آخر هذه الآية ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وذلك ليؤكد تحقيق وعده للمؤمنين، وأيضًا لينبههم أنهم إذا صاروا ناكرين لهذه النعمة فسينالون عقابًا شديدًا، لقوله تعالى في مكان آخر ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم:٨)، فبما أن الخلافة نعمة عظيمة فالذين يجحدونها يُعَدُّون من الفاسقين.

إن هذه الآية شهادة عظيمة على صدق الخلافة الراشدة، حيث بيّن الله تعالى فيها أنه سيقيم نظام الخلافة بين المسلمين منّةً عليهم، وسيكون هؤلاء الخلفاء مؤيَّدين من عنده تعالى، حيث قال ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، فينال المسلمون ما نالته الأمم السابقة من النعم والمكافآت.

ثم ذكر الله تعالى في هذه الآية علامات يُعرف بها الخليفة الحق من الخليفة الباطل، وهي كالآتي:

العلامة الأولى: إن الله تعالى هو الذي يختار الخليفة، أي لا يكون في اختيار ذلك الخليفة مكيدة من المكائد البشرية. فلا هو يتمنى الخلافة ولا يُختار بحسب مخطط سابق، بل في بعض الأحيان يتم اختياره في ظروف يبدو اختياره فيها مستحيلا. فكلمات ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ نفسها تدل على أن الله تعالى هو الذي يختار الخليفة، لأن الذي يعد هو الذي يُنجز ما وعد لا أحد غيره.

إذًا، فأوّل ما بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الخلفاء الصادقين يأتون من عند الله تعالى، ولا يمكن أن يصبح أحد خليفة بحسب أمنيته أو بحسب مخطط، إذ يكون خليفةً من أراد الله تعالى أن يجعله خليفة، بل أحيانا سيقع الخيار الرباني على شخص لا تتصور الدنيا أنه سيصبح خليفة.

والعلامة الثانية التي ذكرها الله تعالى للخليفة الصادق أنه تعالى سينصره كنصرته للأنبياء لقوله تعالى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.. أي أن هؤلاء الخلفاء سيستحقّون نصرتنا كما استحقها الخلفاء في الماضي.

علمًا أننا حين ننظر إلى الخلافة في الذين خلوا من قبل نجدها ثلاثة أنواع تالية:

النوع الأول من الخلافة هو "خلافةُ نبوةٍ" كخلافة آدم عليه السلام لقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣١). والظاهر أنه لم يتم انتخاب لآدم، كما لم يكن ملكًا، إنما وعد الله الملائكة بإقامة خليفة له في الأرض، فأقام آدم عليه السلام بحسب هذا الوعد، وعاقبَ الذين كفروا به. لا شك أن آدم كان خليفة من حيث إنه هو وقومه خلَفوا جيلاً هلكوا، كما كان خليفة من حيث إن الله تعالى قد أخرج منه نسلا كثيرًا؛ ولكن أكبر ما يميّزه هو أنه كان نبيًا ومأمورًا من عند الله تعالى كما تدل على ذلك الآيةُ المذكورة أعلاه. وبهذا المعنى نفسه قد سُمي داود عليه السلام خليفة حيث قال الله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(ص:٢٧). ولما كان داود عليه السلام نبيًا فثبت أن المراد من الخلافة هو خلافة نبوة.

علمًا أن البعض قد فسّر قوله تعالى ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بأنه عليك يا داود ألا تتّبع أهواء الناس. لكن ليس هذا هو المراد، بل لقد نبّه الله تعالى هنا داود عليه السلام أنه إذا أشارتْ عليه أغلبية الناس بشيءٍ، فعليه أن لا ينظر إلى الأغلبية فقط، بل يرى فيما إذا كان اقتراحهم مفيدًا أم لا، فإذا كان مفيدًا رضي به، وإلا رفضه خاصة إذا كان فيه إثم وضلال، دون أن يبالي بأنه اقتراح الأكثرية، وإنما عليه أن يعمل بما يهديه الله إليه. وكأن هذه الآية تتضمن نفس المعنى الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾(آل عمران:١٦٠).

إذًا، فخلافة السابقين كانت "خلافة نبوة" كخلافة آدم وداود – عليهما السلام– حيث سمّى القرآن كليهما خليفة. ولكن كل واحد منهما قد سُمّي خليفة لكونه نبيًا ومأمورًا حيث تسبَّبَ في انجلاء صفات الله في الدنيا وصار مظهرًا لله سبحانه وتعالى في العالم.

والنوع الثاني من الخلافة هو "خلافةُ مُلْك" كما هو ثابت من قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:٧٠)، وكذلك من قول صالح عليه السلام لقومه في القرآن الكريم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(الأعراف:٧٥). فالمراد من الخلفاء هنا مجرد ملوك ماديين، وكما أن المراد من النعمة أيضًا مجرد نعمة الحُكم والمُلك. وقال الله تعالى عن اليهود مشيرا إلى هذه النعمة نفسها ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:٢١). فترى أن الله تعالى قد بيّن هنا أنه جعل اليهود خلفاء بطريقتين أولاهما ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي أعطاهم "خلافة نبوة"، وثانيتهما ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي أعطاهم "خلافة مُلْك". وبما أنه لم يكن في زمن موسى أيُّ مَلِكٍ يهودي آخر، فالمراد من

الخلافة هنا نبوة موسى ومَلَكيّته، حيث صار ملكًا عليهم بعد عبور نهر النيل، شأنه شأن النبي ﷺ الذي كان بعد فتح مكة نبيًا من جهة وملكًا من جهة أخرى، ولكن مَلَكيّته كانت تابعة لأحكام الله تعالى و لم يكن كالملوك الماديين المستبدين.

والنوع الثالث من الخلافة هو أناس يخلفون النبي بعده ويتّبعون خطواته أي أنهم يدعون قومه إلى شرعه ويعملون على اتحادهم، سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء. فمثلا لما ذهب موسى عليه السلام إلى الطور في الليالي الموعودة أمر هارونَ بالإشراف على قومه وقال ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣). ولما كان هارون قد وُهب النبوة قبل هذه الواقعة، فالخلافة التي وهَبها موسى إياه لم تكن خلافة نبوة، بل كانت "خلافة نظام"، إذ لم يكن المراد منها إلا أن يتولى هارون نظام قوم موسى في غيابه ويحافظ على وحدتهم ويجنّبهم الفساد. فكان هارون نبيًا تابعًا وخليفةً لنبيٍ مَلك أيضًا، ولكن خلافته لم تكن "خلافة نبوة"، بل كانت "خلافة نظام". بيد أن الله تعالى قد يجمع في شخص "خلافة نظام" مع "خلافة نبوة" أي أنه تعالى يبعث لإصلاح أمة نبي سابق نبيا آخر لا يأتي بشرع جديد إنما ينفّذ شرع النبي السابق، وبتعبير آخر إنه يعمل على تكميل مهمة النبي السابق فيما يتعلق بالشرع؛ فيكون خليفة له من هذه الناحية، ولكن فيما يتعلق بمنصبه فيعطيه الله تعالى إياه مباشرة. وقد جاء في بني إسرائيل خلفاء كثيرون من هذا النوع، بل كل أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام كانوا خلفاء من هذا النوع؛ أعني أنهم كانوا أنبياء، ولكنهم لم يأتوا بشرع جديد، بل عملوا على إقامة شرع موسى عليه السلام نفسه. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(المائدة:٤٥).. أي لا شك أننا أنزلنا التوراة وكان كتابًا مليئًا بالهداية والنور يحكم بها لليهود الأنبياء الذين كانوا مطيعين لنا وكذلك العارفون والعلماء الربانيون لأنهم كانوا مطالَبين بالحفاظ على كتاب الله تعالى.

إذًا، فإن الله تعالى قد بعث بعد موسى أنبياء كثيرين ليعملوا على إقامة الشرع الموسوي، أي كانوا خلفاء لموسى. وبالإضافة إلى هؤلاء الأنبياء قد عُهدت مهمة إقامة الشرع الموسوي إلى أناس آخرين يمكن أن نسمّيهم ربانيين وأحبارًا.

لقد اتضح من ذلك أنه قد جاء بعد موسى عليه السلام أنبياء ومجددون لفترة طويلة كخلفاء له، وكانت مهمتهم تكميل الشرع الموسوي، وكان آخرهم المسيح الناصري عليه السلام الذي يعتقد كثير من المسلمين خطأً أنه كان نبيًا ذا شرعٍ جديد (البحر المحيط)، كما يظن المسيحيون من هذه العصور أنه جاء بقانون جديد ولذلك سموا كتابه "العهد الجديد". ولكن القرآن الكريم يعتبر المسيح الناصري خليفة لموسى – عليهما السلام – جاء لإقامة دينه فحسب، حيث أوضح القرآن الكريم بعد الآيات المذكورة أعلاه فقال ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٤٧).. أي بعد النبيين المذكورين أعلاه الذين جاؤوا لإقامة التوراة، قد أرسلْنا عيسى بن مريم عليه السلام الذي كان متّبعًا لخطواتهم ومحققًا لنبوءات التوراة. ويقول المسيح نفسه: "لا تظنوا أنني جئتُ لأنقض الناموسَ أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقض، بل لأكمّل. فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (متى ٥: ١٧-١٨).

باختصار فكل الأنبياء والمجددين الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام – بدءًا من يوشع الذي خلفه فور وفاته وانتهاءً بالمسيح بن مريم – كانوا خلفاء لموسى ومقيمين لشرعه.

إذًا، فوعدُ الله تعالى للمسلمين ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني أنه تعالى سيمنح هؤلاء الخلفاء البركات كما منحها الخلفاء الأولين وسيعاملهم كمعاملته عز وجل مع الأولين، أي أنهم سيتلقون التأييد الرباني كما تلقّاه الأنبياء وخلفاؤهم السابقون.

ولو قال قائل: لقد ذكر الله تعالى في القرآن أن الأولين قد مُنحوا "خلافة المُلك" أيضًا، فلماذا شُبّهت الخلافة الإسلامية بخلافة النبوة بشكل خاص دون خلافة المُلك؟

والجواب أنه مما لا شك فيه أن الله تعالى قد وعد المسلمين بالملوكية أيضا، ولكن الله تعالى لا يتحدث هنا عن المُلك الماديّ بل يتحدث عن النعم الدينية فقط.

والدليل الأول على ذلك هو قول الله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.. أي أن الله تعالى سيقيم الدين الذي ينتمي إليه هؤلاء الخلفاء. وهذا الأمر لا ينطبق على الملوك الماديين، إذ لا يقيم الله تعالى دينهم؛ بل هذا خاص بالخلفاء الروحانيين فقط. فثبت أن الخلافة الإسلامية تشبه "خلافةَ النبوة" لا "خلافة الملوكية".

والدليل الثاني هو قول الله تعالى ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. إذ لا تتوافر هذه الميزة في الملوك الدنيويين أبدا، حيث تجدهم اليوم جالسين على عروشهم لابسين تيجانهم، بينما تجدهم غدًا مخلوعين عن عروشهم يتسوّلون الناس في الشوارع. كما ليس هناك أي وعد لهم من الله تعالى بأنه سيبدّل خوفهم أمنًا، بل الواقع أن همهم تنهار في كثير من الأحيان إذا داهمهم خطر كبير.

والدليل الثالث هو قول الله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.. أي أن هؤلاء الخلفاء يكونون موحِّدين خالصين وأكبر أعداء للشرك. أما ملوك الدنيا فيقعون في الشرك أيضا حتى قال الرسول ﷺ إنهم قد يقعون في الكفر البواح المكشوف (البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورًا تنكرونها). فلا يمكن، والحال هذه، أن يكون هؤلاء مصداقا لآية الاستخلاف.

والدليل الرابع على أنه ليس المراد من الخلفاء المذكورين هنا ملوكا دنيويين هو قول الله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أي الذين يكفرون بهؤلاء الخلفاء سيصبحون فاسقين. فكيف، يا ترى، يمكن أن يصير الإنسان فاسقا إذا رفض طاعةَ ملكٍ يمكن أن يقع في الكفر البَوَاح؟ كلا، لا يمكن أبدًا أن يصبح

المرء فاسقًا لإنكاره طاعة الملوك الماديين كهؤلاء. إنما تصدر فتوى الفسوق ضد الإنسان إذا ما رفض الطاعة للخلفاء الروحانيين.

فهذه الأدلة الأربعة المذكورة في آية الاستخلاف تؤكد أن الخلافة المذكورة هنا ليست "خلافة الملوكية". فقول الله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ... إلخ﴾ يؤكد أن الخلافة الموعودة في هذه الآية تشبه "خلافة النبوة" لا "خلافة المُلك".

والعلامة الثالثة لهذه الخلافة هي أن استمرارها منوط بإيمان الأمة وعملِها الصالح، فالله تعالى سيفي لهم وعده ما داموا مؤمنين يعملون الصالحات. وهذا يعني أن من أكبر ما يميّز النبوة عن الخلافة أن النبوة تقام حين تمتلئ الدنيا سوءًا وفسادًا كما قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الروم:٤٢).. أي أنّ من سنة الله تعالى، حين ينتشر الفساد في البر والبحر وينسى الناس ربهم ويُعرضون عن أحكامه ويتمادون في الغي والضلال، وتحيط الظلمة بكل شبر من الأرض، أن يبعث نبيًا لإصلاح الناس، فيعود بنور الإيمان من السماء إلى الأرض، ويهدي الناس إلى الدين الحق. أما الخلافة فتقام حين تكون الأغلبية من القوم مؤمنين يعملون الصالحات. فالخليفة لا يأتي ليثبّت الناس على العقائد الصحيحة، بل يأتي لتكميل النظام. تأتي النبوة عندما لا يكون عند الناس إيمان ولا عمل صالح، بينما تأتي الخلافة حين يكون جميع الناس – تقريبًا – مؤمنين يعملون الصالحات؛ ومن أجل ذلك لا تبدأ الخلافة إلا عند انتهاء النبوة، لأن النبوة تكون قد ثبّتتِ الناسَ على الإيمان والعمل الصالح، ولأن أكثريتهم تكون مؤمنة تعمل الصالحات، فيُعطيهم الله تعالى نعمة الخلافة. أما العصر الذي لا يخلو من الصالحين كما لا يكون مليئًا بالأشرار، فلا تكون فيه النبوة ولا الخلافة؛ إذ لا يكون مرض الناس قد بلغ الشدة في ذلك الوقت حتى يتطلب مجيء نبي، كما لا تكون صحتهم على ما يرام حتى يُقام بينهم خليفة يستعين بهم لخدمة الدين.

فثبت من هنا أن الخلافة لا تغيب نتيجة كون الخليفة ناقصًا، بل تنتهي الخلافة نتيجة كون الجماعة ناقصة، وانتهاء الخلافة ليس دليلا على كون الخليفة آثما، بل هو دليل على كون الأمة آثمة، لأن الله تعالى قد وعد صراحة أنه سيختار الخلفاء ما دامت أغلبية الجماعة مؤمنين يعملون الصالحات، أما إذا تردّت حالتها و لم تعُدْ أغلبيتها مؤمنين يعملون الصالحات، فيقول الله تعالى لهم: لقد تغيّرتم، فأنا أيضا أنـــزع منكم نعمتي. ومع ذلك لو شاء الله تعالى فقد يقيم بين مثل هذه الجماعة أيضًا خلفاء لفترة من الزمن إحسانًا ومنّة. فالذي يقول أن الخليفة قد صار فاسدًا فكأنما يعلن أن أغلبية الجماعة قد حُرمت الإيمان والعمل الصالح؛ ذلك لأن الله تعالى قد وعد بأنه سيقيم في الأمة خلفاء ما دامت متمسكة بالإيمان والعمل الصالح، أما إذا لم يعد فيها الإيمان والعمل الصالح فسينقطع مجيء الخلفاء بينها. إذًا، فلا إمكانية لفساد الخليفة الراشد، لكن هناك إمكانية في كل وقت أن تفسد أكثرية الجماعة وتصبح محرومة من الإيمان والعمل الصالح.

والعلامة الرابعة التي ذكرها الله تعالى أنه سينشر في الدنيا ما يأتي به هؤلاء الخلفاء من أحكام وأفكار دينية رغم الظروف غير المواتية لقوله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾. وهذا برهان عظيم على صدق الخلافة الحقّة، وإذا تدبّر فيه المرء وجده آية عظيمة على صدق الخلفاء.

الغريب أن أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما – كانا من عائلات لم يكن لها نفوذ ولا قوة بين العرب، بينما كان عثمان وعلي – رضي الله عنهما – من عائلات ذات نفوذ وقوة بين العرب، إذ كان بنو عبد شمس موالين لعثمان ﷺ، وكانت بنو عبد المطلب موالين لعلي ﷺ؛ وكلتا القبيلتين كانت تتمتع بنفوذ كبير بين العرب. ولما أصيبت الخلافة بالنكسة و لم تعد أغلبية المسلمين مؤمنين يعملون الصالحات فرَض بنو عبد شمس الموالون لعثمان ﷺ حُكمَهم على المسلمين، فظلّوا خلال حكمهم يُثنون على عثمان خيرا ويذمّون عليًّا، وقلّما تجد في عهدهم من يُثني على أبي بكر وعمر ويذكر محاسنهما رضي الله عنهم جميعًا (البداية والنهاية، المجلد

التاسع ص ٢٣٤: ثم دخلت سنة ست ومئة). ثم تغيرت الظروف وانتزع بنو عبد المطلب الحكمَ من بني عبد شمس وقامت الدولة العباسية في بغداد، فبذلوا جهدهم في مدح عليّ ﷺ وبيان مناقبه لانتمائهم إلى أهل البيت (الطبري: المجلد الثامن، خلافة أبي العباس، ذكر الخبر عن سبب خلافته). وهكذا ظلت فئة من المسلمين تذكر مناقب عثمان ﷺ لمئات السنين، بينما ظلت فئة أخرى تبيّن مناقب علي ﷺ في فترة أخرى، وبرغم أنه لم يوجد في تلك الأيام أنصار كثيرون لأبي بكر وعمر إلا أن الله تعالى كتب لأحكام وفتاوى أبي بكر وعمر من العزة والقبول ما لم يكتب لفتاوى عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وهذا دليل ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، حيث أقام الله تعالى دينهم وكتب لهم العزة والقبول في قلوب الناس؛ فلو سألت أي مسلم اليوم مَن هو أعز الخلفاء عنده لقال أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ – رضي الله عنهم. فبرغم أنه قد جاءت فترة قرون لم يكن أحد فيها يذكر أبا بكر وعمر بخير، وبرغم أن الناس ينسون كبار مشاهيرهم في مثل تلك الحقبة الطويلة إلا أن الله تعالى كتب لهما الخلود وكتب لفتاويهم وأقوالهم عزًّا وشهرة أكثر مما كتبه لفتاوى وأقوال عثمان وعلي – رضي الله عنهم أجمعين.

ثم إن بني عبد شمس قد حاولوا جاهدين في زمن حُكمهم تشويه سمعة علي ﷺ، ثم في عهد الدولة العباسية تعرّض عثمان ﷺ لحملة من المطاعن الكثيرة، وكانت هناك محاولات من الحكومات لمحو اسم هذين الخليفتين، إلا أن الله تعالى قد أخرجهما نقيين طاهرين وكتب لهما العزة والشرف في العالم الإسلامي كله.

ثم إن من معاني الدين الحُكمَ والسياسةَ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ يعني أن من علامات الخلفاء الصادقين أن الله تعالى يكتب النجاح لسياستهم وإستراتيجيتهم. من الممكن أن يخطئ الخليفة في الأمور الشخصية أحيانًا، ولكنه لو أخطأ في ما يخص الجماعة ورقيها ماديًا وروحيًا فإن الله تعالى يحمي جماعته من مغبّة خطئه ويطلعه على خطئه بطريق آخر فيتداركه. وهذا ما يسمى "العصمة الصغرى" بحسب مصطلح الصوفية. وهذا يعني أن الأنبياء

يتمتعون بـــ "العصمة الكبرى"، أما الخلفاء فيتمتعون بـــ "العصمة الصغرى"، فلا يدَعهم الله تعالى يرتكبون خطأ فادحا يؤدي إلى هلاك الجماعة. من الممكن أن تحدث في قراراتهم أخطاء جزئية طفيفة، ولكن العاقبة تكون خيرًا، فيجعل الله على أيديهم الإسلام غالبًا وأعداءه مغلوبين، وبتعبير آخر إن سياستهم تصبح سياسة لله تعالى لكونهم يتمتعون بـــ "العصمة الصغرى" من عنده تعالى. لا شك أنهم هم الذين يتكلمون، وأن ألسنتهم هي التي تتحرك، وأن أيديهم هي التي تعمل، وأن عقولهم هي التي تعمل، ولكن يد الله تعالى هي التي تعمل وراء كل هذا. فمن الممكن أن يقعوا في أخطاء جزئية في قراراتهم، كما يمكن أن يُقدّم إليهم المستشارون مشورة خاطئة، ولكن الله تعالى يأخذ بهم سالمين من بين هذه العوائق والعقبات، ويكتب لهم النجاح؛ وكلما اكتملت حلقات قراراتهم جاءت سلسلة أحكامهم سليمة محكمة بحيث لا تقدر قوة على كسرها.

والعلامة الخامسة التي بيّنها الله تعالى للخلفاء الصادقين هي قوله ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي كلما هدد خطر ما الخلافةَ الإسلامية على نطاق الأمّة هيأ الله الأسباب التي تُبدّل هذا الخطر أمنًا للأمّة شريطة أن تكون قلوبهم عامرة بنور الإيمان. فترى أنه لما عمّت الفوضى عند استشهاد عثمان ﷺ جمع الله تعالى طائفة كبيرة من المسلمين على يد علي ﷺ. ولما قام معاوية ضد علي – رضي الله عنهما – خلق الله تعالى الخشيةَ في قلب معاوية ﷺ كما اقتضتها الظروف، فبعث إلى ملك الروم المسيحي – الذي أراد أن يستغلّ النـــزاع بين المسلمين وقرر الهجوم على المملكة الإسلامية – رسالة ينذره فيها بقوله: لا يغرّنك الخلاف الموجود بيننا نحن المسلمين. واعلم أنك لو هاجمت الدولة الإسلامية فسأكون أول قائد يخرج لمحاربتك دفاعًا عن علي ﷺ.* فخاف الملك الروماني، وانقلب خوف المسلمين

* نص ما ورد في بعض المصادر هو أن معاوية ﷺ كتب للملك المسيحي: "والله، لئن لم تنته وترجع إلى بلادك، يا لعين، لأصطلحنّ أنا وابنُ عمي عليك، ولأُخرجنّك من جميع بلادك، ولأضيّقنّ عليك الأرضَ بما رحُبتْ. فعند ذلك خاف ملكُ الروم وانكفّ". (البداية والنهاية المجلد التاسع ص ١١٩: وهذه ترجمة معاوية وذكر شيء من أيامه). *(المترجم)*

أمنًا. لقد كان هذا التصرف من معاوية ﷺ دليلا على أن قلبه كان عامرًا بالإيمان لو جزئيًا، ولو أن معاوية تصالح مع عليّ وأطاعه طاعة كاملةً لزال الخلاف بين المسلمين للأبد، وكانت لذلك نتائج طيبة جدا تجعل مسلم اليوم يرفع رأسه بكل فخرٍ. ولكن المؤسف أن معاوية ﷺ أعلن طاعة مؤقتة و لم يعلن طاعة كاملة.

يظن البعض خطأً أن المراد من هذه الآية أن الخلفاء الراشدين يكونون محفوظين من كل تخويف، فيستنتجون بناء على ظنهم هذا أن عمر وعثمان وعلي لم يكونوا خلفاء راشدين إذ قد تعرضوا لشتى القلاقل حتى قُتلوا، فليس هناك خليفة راشد صادق إلا أبا بكر فقط.

لقد وقع هؤلاء في هذا الخطأ لأنهم لم يتدبّروا ألفاظ القرآن الكريم. لا شك أن تبدُّل الخوف أمنًا نعمةٌ عظمية، ولكن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدّلنّهم من بعد الخوف أمنًا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي أنه تعالى يزيل الخوف الذي تستشعر به قلوبهم ويدفع ما يسبب لهم الخوف ويبدّله أمنًا. إذًا، فليس هناك وعد من الله تعالى أن الخلفاء لا يتعرّضون لما يُعَدُّ في نظر غيرهم من الناس خوفًا، وإنما يعد الله تعالى بإزالة ما يسبّب الخوف للخلفاء. فالثعبان مثلاً شيء مخيف عادة، ولكنه لا يسبب أدنى خوف لكثير من الناس الذين يأخذونه بأيديهم ويلعبون به. كذلك فإن الفقر شيء مخيف، ولكن الرسول ﷺ لم يحفل به بل قال: "الفقر فخري".. أي أن الفقر لا يسبب لي ذلة ولا مهانة، بل هو مبعث فخرٍ لي. فلو كان أحد يعتقد أن عدم تيسُّر وجبة من وجبات الطعام أمرٌ مُخــزٍ للمرء، فهل نقول أن هذا الأمر كان – حاشا لله – خزيًا وعارًا للنبي ﷺ أيضًا؟ كلا، بل إن الذي يعتبر الفقر مفخرة ويفضّل الأسمال البالية على الثياب الفاخرة، ويعدّ متاع الدنيا أحقر من النجاسة، فلا يمكن أن يسبب له الفقر أي خوف. كذلك فإن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدّلنهم من بعد الخوف أمنا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي لن يكون هناك ما يخيفهم.

ولو وضعنا هذا الأمر في الحسبان لتبيّن لنا أنه لم تأت على الخلفاء أي مصيبة خافوها، وإذا حلّت بهم بالفعل مصيبة كهذه أزالها الله تعالى. لا شكّ أن عمر ﷺ

قد استُشهد، ولكن واقع الأمر يكشف لنا أن عمر ﷺ لم يكن يخاف الشهادة، بل كان يتمنى الشهادة في سبيل الله تعالى، حيث كان يدعو: "اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك" (البداية والنهاية المجلد السابع ص : ١٣٧: خبر سلمة). فإذا استُشهد من كان يدعو الله تعالى طوال عمره بأن يُستشهَد في المدينة، فكيف نقول عنه حين استُشهد أنه جاء عليه وقت من الخوف ومع ذلك لم يبدّل الله تعالى خوفه أمنًا؟ لو كان عمر ﷺ خائفا من الشهادة ثم استُشهد لجاز لأحد القول إن الله لم يبدل خوفه أمنًا، ولكنه ما دام يدعو الله تعالى أن يكتب له الشهادة في المدينة، فكيف نقول أنه كان يخاف الشهادة؟ وما دام عمر ﷺ غير خائف من الشهادة، بل كان يدعو لها حتى استجاب الله له دعاءه، فثبت أنه لم يأت عليه خوف يستشعره في قلبه ثم لم يدفعه الله عنه. فإن هذه الآية إنما تقول إن ما يخافه الخلفاء لن يقع أبدًا، حيث وعدهم الله تعالى بتبديل خوفهم أمنًا. فإذا كانوا لا يخافون أمرًا، بل رأوا فيه عزّهم ورفع درجاتهم، فلا يصحّ أن يعتبره أحد خوفًا لهم، ثم يقول: لماذا لم يبدّل الله تعالى خوفهم أمنًا؟

عندما قرأت دعاء عمر ﷺ قلت في نفسي إن دعاءه هذا كان يعني في الظاهر أن يشنّ الأعداء على المدينة هجوما شديدا يقضي على جميع المسلمين حتى يصل الأعداء إلى عمر ويقتلوه. ولكن الله تعالى قد استجاب دعاءه من جهة، ومن جهة أخرى قد هيأ الأسباب لحماية شرف الإسلام وعزّته أيضًا، فبدلاً من أن يهاجم عدو من الخارج قام أحد الخبثاء من داخل المدينة نفسها وقتل عمر ﷺ بالخنجر. (البداية والنهاية المجلد السابع ص ١٣٧)

ثم إن الأحداث التي وقعت مع عثمان ﷺ تؤكد أنه لم يكن خائفا منها، إذ الثابت من التاريخ أن المتمردين لما استولوا على المدينة كانوا ينتشرون قبل الصلاة في المسجد ليفصلوا أهل المدينة بعضهم عن بعض، حتى لا يجتمعوا ولا يهبّوا للمقاومة. وبرغم هذا الجو المشحون بالفتنة والخطر كان عثمان ﷺ يحضر المسجد للصلاة وحده دون خوف. وظل يحضره إلى أن منعه الناس من ذلك. ولما تفاقمت الفتنة وأراد المتمردون الهجوم على بيت عثمان ﷺ ناشد الصحابةَ أن لا يعرّضوا

من أجله أرواحهم للخطر، بل عليهم أن يرجعوا إلى بيوتهم بدلاً من حراسة بيته. (المرجع السابق ص ١٧٦-١٧٧)

فهل يتصرف الخائف من الشهادة هكذا؟ وهل يقول للناس: لا تحرسوني بل ارجعوا إلى بيوتكم.

ومن الأدلة الدامغة على أن عثمان ﷺ لم يكن خائفا من هذه الأحداث أن معاوية ﷺ جاء للحج أيام تلك الفتنة، وعندما أراد العودة إلى الشام ذهب إلى المدينة للقاء عثمان ﷺ، وعرض عليه أن يخرج معه إلى الشام ليكون في مأمن من الفتن. فقال له عثمان ﷺ: "لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه". فقال معاوية: إذا كنت لا ترضى بذلك فإني أبعث لك من الشام جنودًا يحمونك من الثوّار. فقال عثمان ﷺ: "لا أريد أن أقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاقَ بجند تساكنهم". قال معاوية ﷺ: إن هؤلاء سيقتلونك غدرًا أو يخرجون لمحاربتك. قال: "حسبي الله ونعم الوكيل". (الكامل في التاريخ: المجلد الثالث ص ١٥٧: ثم دخلت سنة خمس وثلاثين، والبداية والنهاية المجلد السابع ص ١٦٩: ثم دخلت سنة أربع وثلاثين، والطبري: الجزء الخامس ص ٣٥٣: ثم دخلت سنة خمس وثلاثين) فقال: إذا كنت لا ترضى بأي شيء فإني أخبرك أن هؤلاء الأشرار مغترّون أن بعض كبار الصحابة سيديرون الأمور بعدك على ما يرام، وإن هؤلاء الأشرار يخدعون الناس بذكر أسماء هؤلاء الصحابة الكبار، فأرجوك أن تأمر هؤلاء الصحابة بأن يتركوا المدينة وينتشروا إلى مختلف الأقطار، فهذا سيثبط من همم المتمردين إذ يقولون في أنفسهم: ما الفائدة من التعرّض لعثمان ما دام لا يوجد في المدينة من يستطيع إدارة الأمور. ولكن عثمان ﷺ رفض اقتراحه وقال: كيف يمكن أن أنفي من المدينة قومًا جمعهم الرسول ﷺ هنا. فبكى معاوية وقال: إذا كنت لا تريد أن تفعل أي شيء فأعلِنْ بين الناس أن معاوية سيأخذ بثأرك لو قُتلتَ. فقال عثمان ﷺ: لن أقوم بهذا الإعلان لأن في طبعك حِدّة وأخاف أن تقسو على المسلمين.

يزعم البعض أن عثمان ﷺ كان ضعيف القلب. ولكن كم من الناس يمكن أن يُبدوا الشجاعة كالتي تحلى بها عثمان ﷺ، وكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أنه كان

يخاف؟ لو كان خائفًا لقال لمعاوية ﷺ: نعم ابعث إلي كتيبة من جيشك لحراستي وأنا سأنفق عليهم. لو كان عثمان ﷺ خائفا لأعلن بين الناس أن أحدا لو تعرّض له فإن معاوية سيأخذ منه بثأره، ولكنه لم يجب معاوية ﷺ إلا بقوله: إن فيك حدة وأخاف أن تشدد على المسلمين إذا أعطيتك هذا الخيار.

ثم لما هاجم الأشرار عثمانَ ﷺ وتَسوّروا عليه بيتَه، لم يخف منهم أبدًا، بل ظل يقرأ القرآن بسكينة. فتقدم ابن لأبي بكر ﷺ يدعى محمد بن أبي بكر – سامحه الله– وأخذ بلحية عثمان ﷺ وهزّها بشدة. فرفع عثمان ﷺ بصره وقال: يا ابن أخي، لو كان أبوك هنا لما سمح لك بذلك. فارتعدت فرائصه ورجع نادمًا. فتقدم شخص آخر وضرب رأس عثمان ﷺ بقضيب من حديد، ثم ركل برجله المصحف الموجود أمامه ﷺ ورماه بعيدا. ثم جاء شخص ثالث وضرب عثمان بسيفه وقطع يده. ثم ضربه ضربة أخرى، فحالت دونه زوجة عثمان – اسمها نائلة– فقُطعت أصابعها. ثم ضربه ضربة ثالثة، فسقط عثمان جريحا، وأغمي عليه. ثم فكر هذا الشقي أنه ربما لم يمت فخنقه و لم يتركه حتى فاضت روحه ﷺ. (البداية والنهاية المجلد السابع ص ١٨٤-١٨٥: صفة قتله – أي عثمان – ﷺ)

من ذا الذي يمكنه بعد معرفة هذه الأمور أن يقول أن عثمان ﷺ كان خائفًا مما وقع به؟ وما دام غير خائف من هذه الأمور، فكيف يقال إن ما وقع كان خلافا لقوله تعالى ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾. لقد كان يخاف أن يتضاءل نور الإسلام، فتحقق ما أراد تحقيقه رغم وقوع هذه الأحداث، وبدّل الله خوفه أمنًا.

ونفس الحال بالنسبة لعلي ﷺ، فكان يخاف أن يتوقف انتشار الصدق والروحانية، فبدل الله خوفه أمنًا. ولكنه ﷺ ما خاف من معاملة الناس له، حيث كان جيش معاوية ﷺ في بعض الأحيان يزيد على جيش علي ﷺ، ولكنه لم يكترث لذلك أبدا، وظل يقول إنه لن يرضى إلا بما يقوله القرآن الكريم.

ولو ظننا أن هؤلاء الخلفاء الراشدين كانوا يخافون المعارضة لوجب التسليم بأن أنبياء الله تعالى – والعياذ بالله – أيضًا كانوا يخافون الناس دائمًا، إذ لا يتعرض أحد للمعارضة الشديدة كما يتعرض لها الأنبياء. فثبت أن معارضة أهل الدنيا ليست

بشيء في أعين الخلفاء حتى يخافوا منها، كما أن الله تعالى لم يقل هنا "وليبدلنهم من بعد الخوف أمنا"، بل قال ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.. أي سيدفع عنهم ما يخافونه. وكما بينت من قبل أنهم ما كانوا يخافون إلا أن تقع الأمة في الغي والضلال. ولكن ببركة اهتمامهم ودعائهم حفظ الله تعالى معظم الأمة الإسلامية من الضلال، فظل مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب الغالب على سائر المذاهب الأخرى في العالم.

وعندما أقول إن الخوف هنا لا يعني الخوف العادي، وإنما المراد منه ذلك الخوف الذي تستشعره قلوب هؤلاء الخلفاء، فقولي هذا لا يعني أنهم يشعرون بالخوف العادي بالضرورة، بل إن الله تعالى يبعد عنهم هذا النوع من الخوف أيضا، إلا أن تكون هناك مصلحة ربانية؛ ومثاله الخوف الذي كان في عهد علي ﷺ، وكان سبب ذلك أن حالة المسلمين عمومًا كانت قد تردَّت لدرجة أنهم لم يعودوا عندها مستحقين لنعمة الخلافة. فأنا لا أقصد مما قلت أن الله تعالى لا يحفظهم من الخوف العادي، إنما أركز هنا على أن الوعد الإلهي المذكور في هذه الآية إنما يخص ذلك الخوف الذي يعتبره الخلفاء خوفًا، والواضح أنهم ما كانوا يخافون إلا أن تقع الأمة الإسلامية في الغي والضلال، فبدل الله تعالى خوفهم هذا أمنًا حيث حفظ الأمة من الضلال فضلا منه، وظلّت الهداية الإلهية ميسرة للمسلمين بعد وفاة الخلفاء أيضًا رغم الفتن الكبيرة. والحق أن المعجزة الحقيقية إنما هي أن تظل أعمال المرء وأمانيه تتحقق بعد وفاته أيضًا، إذ لو تحقق له في حياته ما أراد فقد يرجع الناس نجاحه إلى التدابير المادية. أما إذا تحققت أهدافه بعد وفاته أيضا فلا يمكن لأحد أن يرجع نجاحه إلى التدابير المادية، بل كان هذا دليلا على كونه محبوبًا ومقربًا عند الله تعالى. وعلى سبيل المثال لقد رأى النبي ﷺ في الكشف أن سراقة بن مالك يلبس الأسورة الذهبية لكسرى فارس. فمعجزة النبي ﷺ لا تكمن في رؤيته أسورة كسرى في يد سراقة، وإنما معجزته أن هذا الكشف قد تحقق بعد وفاته ﷺ، حيث جاءت تلك الأسورة في أموال الغنائم بعد وفاته ﷺ بفترة طويلة. وبرغم أن الشرع يحرّم على الرجال لبس الذهب إلا أن الله تعالى ألقى في قلب عمر ﷺ أن يُلبس

سراقة تلك الأسورة الذهبية تحقيقا لكشف الرسول ﷺ، وبالفعل ألبسه إياها. والمعجزة الأخرى في ذلك أن عمر رضي الله عنه كان قد بلغه خبر هذا الكشف النبوي فحققه؛ إذ كان من المستحيل أن يسمع عمر رضي الله عنه كل ما قاله الرسول ﷺ في مختلف المناسبات، ثم كان هناك احتمال كبير أن ينسى من سمع قول النبي ﷺ هذا ولا يذكره لغيره؛ إذًا، فمن المعجزة أيضا أن عمر رضي الله عنه الذي وصلته هذه الأسورة الذهبية كان قد بلغه هذا القول النبوي. والجزئية الأخرى من هذه المعجزة أنه برغم أن الإسلام يحرِّم على الرجال لبس الذهب لبعض الحِكم، إلا أن الله تعالى أراد تحقيق نبوءة لرسوله ﷺ، فألقى في روع عمر أنه لا بأس في أن يُلبس الأسورة الذهبية هذا الصحابي لبعض الوقت تحقيقًا لنبوءة الرسول ﷺ، ففعل. (أسد الغابة: المجلد الثاني ص ٢٦٥-٢٦٦: سراقة بن مالك)

ثم إننا نرى أن الله تعالى ظل يبدّل خوف الخلفاء الراشدين أمنًا بعد وفاتهم أيضًا، حينًا بعد قرن، وحينًا بعد قرنين، وحينًا بعد ثلاثة قرون، وحينًا بعد أربعة قرون، وحينا بعد خمسة قرون، وذلك ليكشف الله تعالى للعالم أنه يحبهم ولا يريد أن يخيّب آمالهم.

بيد أنه لو اعتُبر الخطاب موجهًا إلى الأمة كلها، فلا بأس أيضًا، لأن الخوف الذي تشعر به الأمة إنما هو أن لا يتغلب الكافرون على الإسلام. ذلك لأن الفرد الواحد إنما يخاف من موت ابنه أو كساد تجارته مثلاً، ولكن خوف القوم يحمل طابعًا عامًا، وما هو إلا الخوف من غلبة الكافرين على الإسلام. وقد بدل الله تعالى هذا الخوف العام للمسلمين أيضًا حيث كتب للإسلام غلبة لم يسبق لها نظير في أي مكان.

والعلامة السادسة التي بينها الله تعالى للخلفاء الصادقين هي ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.. أي هؤلاء الخلفاء سيقومون بعبادتي دون أن يشركوا بي شيئًا.. بمعنى أن الله تعالى سيشحنهم بالشجاعة والجرأة فلا يخافون في الله تعالى لومة لائم. إنهم لن يعملوا أي شيء خوفًا من المخلوق، بل يتوكلون على الله تعالى ويعملون كل شيء ابتغاء وجه الله ورضوانه تعالى. وليس المراد من قوله تعالى ﴿لا

يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أنهم لن يعبدوا الأصنام، ذلك لأن المسلم العادي أيضًا لا يعبدها فما بالك بالخلفاء. إنما المراد من قوله تعالى ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أنهم لن يتنازلوا عن أي موقف خوفًا من المخلوق، بل سيقومون بكل عمل تحقيقًا لمشيئة الله وابتغاء مرضاته تعالى غير مكترثين للمحن والمصائب التي قد تصيبهم في هذه السبيل؛ ذلك أننا نرى أن أكبر الشجعان أيضًا يغيّر في بعض الأحيان موقفه خوفًا من الناس، فمع أنه لا يريد الانحراف عن الحق إلا أنه يتمنى في قلبه أن يقوم بعمله بحيث لا يعترض عليه أحد، فيحاول إرضاء الجميع.

كان الشيخ غلام علي من الوهابيين المتشددين، وكان الوهابيون قد أفتوا بجواز أداء صلاة الجمعة في الهند زمن حكم الإنجليز، بينما كان الأحناف يرونه غير جائز إذ يقولون إنما تجوز صلاة الجمعة إذا كان السلطان مسلمًا، وحين يكون الإمام قاضيًا، وإذا كان مكان الجمعة مدينة من المدن (إمداد الفتاوى – مختصر سوانح حيات أشرف علي تهانوي – المجلد الأول، باب صلاة الجمعة والعيدين: ص ٤٥٩، وفتاوى نذيرية: مجلد أول: كتاب الجمعة ص ٥٧٥). لما كان الإنجليز مستولين على الهند آنذاك فلم يكن هناك سلطان مسلم ولا قاض، فكان الشيخ غلام علي الوهابي لا يرى جواز أداء صلاة الجمعة في الهند من جهة، ولكنه من جهة أخرى كان يقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾(الجمعة:١٠)، فكان لا يشعر براحة البال، إذ كان يود أن يصلي الجمعة، ولكنه كان يخاف من أن يفتي الأحناف ضده؛ فلكي يحل هذه المعضلة كان يصلي الجمعة في قريته أوّلاً، ثم يصلي الظهر أيضًا، ظنًّا منه أنه إذا كانت فتوى أداء الجمعة صحيحة فلا يخسر، وإذا كانت فتوى أداء صلاة الظهر مكان الجمعة صحيحة فأيضًا يفوز. فكان يسمي صلاة الظهر التي كان يصليها "الصلاة الاحتياطية"، وكان يقول إذا رفض الله تعالى صلاة الظهر نضع أمامه صلاة الجمعة، وإذا رفض صلاة الجمعة سنقدم إليه صلاة الظهر. والذي كان لا يصلي هذه "الصلاة الاحتياطية" كان يُعتبر من الوهابيين.

وكان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أنه سافر ذات مرة مع الشيخ غلام علي إلى مدينة غورداسبور، وحانت صلاة الجمعة في الطريق، فدخل الجميع بمن فيهم الشيخ غلام علي في مسجدٍ لأداء الجمعة. علمًا أن مذهب المسيح الموعود عليه السلام كان مشابهًا بمذهب الوهابيين الذين يرون أنه لا بد للنجاة من العمل بأحاديث الرسول ﷺ واتباع أسوته. وبعد أن فرغ الجميع من الجمعة، صلى الشيخ غلام علي أربع ركعات كصلاة الظهر. يقول المسيح الموعود عليه السلام فسألته: ما هذه الركعات الأربع بعد صلاة الجمعة؟ قال: إنها "الصلاة الاحتياطية". قلت: إنك من الوهابين، ومذهبك مخالف لذلك، فلِمَ صليت "الصلاة الاحتياطية" إذًا؟ قال: لا أصلي "الصلاة الاحتياطية" لأني لا أعرف ما إذا كان الله تعالى سيتقبل مني صلاة الظهر أو صلاة الجمعة، وإنما أصليها كي لا يعترض علي أحد.

فترى أن بعض الناس يلجأون إلى الحيل كما فعل الشيخ غلام علي حيث كان مطمئنًا بأدائه صلاة الجمعة، ومع ذلك كان يصلي الظهر أيضًا لكي يرضي الناس.

وهناك طريفة شهيرة أن أحد الصالحين من أهل السنة كان يعيش في بلد للشيعة، وضيّق عليه الفقر جدًّا، وألجأه للذهاب إلى الملك ليطلب منه المعونة. وكان الملك من الشيعة، فلما رأى وزيره الرجل الصالح قال: يبدو من مظهر هذا الشخص أنه من أهل السنة. فقال الملك: كيف عرفت ذلك؟ قال: هكذا يبدو لي من هيئته. قال الملك: هذا ليس دليلاً، عليك أن تختبره أمامي. فأثنى الوزير على علي رضي الله عنه خيرًا، فأخذ الرجل أيضًا يثني على علي رضي الله عنه. فقال الملك للوزير: لقد خاب ظنك، فإنه شيعي وإلا لما مدح عليًّا هكذا؟ فقال الوزير: مهما يكن فإني أراه سنيا. قال الملك: حسنًا، فاختبره بطريق آخر. فأمر الوزير الرجلَ بأن يلعَن الثلاثةَ– وكان يعني أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. فقال الرجل: لعَن الله الثلاثةَ. فقال الملك: ألم تعلم حتى الآن أن الرجل ليس سنيًا؟ فقال الوزير: هكذا يبدو من الظاهر، ومع ذلك إن قلبي يفتي أنه ليس من الشيعة. ثم أخذ الرجلَ ناحية وسأله: ما هو مذهبك؟ قال: أنا من أهل السنة. قال: فلم لعنتَ على الثلاثة؟ فأجاب الرجل الصالح: أنت تعني من الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان، أما أنا فأعني بالثلاثة

أنت والملك وأنا. لقد لعنت عليكما لأنكما تلعنان كبار الصالحين، وقد لعنتُ على نفسي إذ ألجأتني شقوتي للاستعانة بكما.

باختصار، فإن المرء يلجأ أحيانًا إلى مثل هذه الحيل خوفًا من الناس، ويظن أنه لم يرتكب بذلك أي إثم، ولكن الله تعالى يصرح بقوله ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أن هؤلاء الخلفاء يكونون مثالاً للشجاعة في سبيل الله تعالى، فلا يصيبهم خوف وذعر، بل يفعلون ما يفعلون لوجه الله تعالى غير خائفين لومة لائم.

و هذه العلامة أيضًا كانت متوفرة في الخلفاء الراشدين على أكمل وجه. فلما توفي النبي ﷺ وانتُخب أبو بكر خليفة، ارتدت الجزيرة العربية كلها، واستفحلت الفتنة حتى لم يصلّ الناس جماعةً إلا في مكة والمدينة، ورفض أهل البلد كلهم أداء الزكاة إلا أهل مكة والمدينة وقرية أخرى، محتجين بأن قول الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾(التوبة:١٠٣) كان خاصًا بالنبي ﷺ، فلا يحق لأحد بعده أن يطالبنا بالزكاة على أموالنا. وثار العرب كلهم على الدولة الإسلامية وخرجوا بجيوشهم لمحاربتها. لا شك أن الإسلام كان ضعيفًا في عهد النبي ﷺ، ولكن الأعداء كانوا يهاجمونه متفرقين، إذ كانت طائفة تحارب المسلمين في وقت، بينما تحاربهم طائفة أخرى في وقت آخر. أما في غزوة الأحزاب حين جاءت جيوش الكفار متجمعة متحدة فكان الإسلام قد اكتسب القوة إلى حد ما، ولكنه لم يكن قويًا بحيث لا يخاف أي هجوم بعد ذلك في المستقبل. ثم لما خرج النبي ﷺ لفتح مكة انضمت إليه بعض القبائل لنصرته. وهكذا ترى أن الله تعالى قد جعل أعداء الإسلام ينبرون لمحاربته بالتدريج حتى لا يكتسبوا القوة فيستولوا على البلاد كلها. ولكن عند خلافة أبي بكر رضي الله عنه ارتدت القبائل العربية كلها دفعة واحدة إلا في مكة والمدينة وقرية أخرى، وخرجت كلها بجيوشها لمحاربة المسلمين. وقد بلغ عدد جيش بعض القبائل مئة ألف مقاتل، بينما كان عدد الجيش المسلم عشرة آلاف فقط، وكان هذا الجيش على وشك الرحيل ناحية الشام. وهو نفس الجيش الذي قد جهزه النبي ﷺ قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد لمحاربة الرومان على حدود الدولة الرومانية. أما باقي المسلمين فكانوا ضعفاء وشيوخًا ما عدا بعض الفتيان القلائل. ونظرًا إلى

الظروف الحرجة المحدقة بالمسلمين فكر الصحابة أنه لو خرج جيش أسامة فلن يبقى في المدينة أحد للدفاع عنها ضد الثوار المتمردين. فذهب إلى أبي بكر وفدٌ يضم كبار الصحابة بمن فيهم عمر وعلي المشهورَين بشجاعتهما، فالتمسوا منه تأجيل رحيل الجيش إلى حين قمع الثورة، إذ ليس هناك سبيل آخر للدفاع عن المدينة وقد أخذ العدو يتقدم إليها بجنوده. فغضب أبو بكر مما أشاروا عليه وقال: هل تريدون أن يكون أول عمل يقوم به ابن أبي قحافة بعد وفاة النبي ﷺ هو أن يمنع الجيش الذي أمر النبي ﷺ برحيله. والله لن أوقف هذا الجيش أبدًا، ولا أبالي بتمرد العرب كلهم، ولا يهمني إذا لم يبق هناك أحد للدفاع عن المدينة. والله، سأبعث هذا الجيش الذي أمرني النبي ﷺ بتسييره وإن دخل العدو علينا في المدينة وأخذت الكلاب تجر جثث المسلمات في شوارعها. إذا كنتم تخافون جيوش الأعداء فيمكنكم أن تتركوني، وسأخرج للقاء الأعداء وحدي. (البداية والنهاية: المجلد الخامس ص ٣٠٤: في تنفيذ جيش أسامة بن زيد)

فما أعظمَ هذا المشهدَ دليلاً على صدق قول الله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾!

أما القضية الأخرى أعني الزكاة، فقال الصحابة لأبي بكر إن كنت لا تريد منع الجيش المسلم من الخروج فعليك أن تتصالح مع الثوار على أن لا نأخذ منهم الزكاة هذه السنة، وذلك لكي تهدأ الثورة خلال هذه الفترة ونجد سبيلاً للقضاء على هذه الفوضى. إنهم ثائرون ومستعدون للقتال والموت، وليس من الحكمة، والحال هذه، أن تطالبهم بأداء الزكاة. فرفض أبو بكر هذا الاقتراح أيضًا بشدة وقال: "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِه" (البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ). فقال الصحابة: لو خرج جيش أسامة ولو لم نعقد مع الثوار هدنة مؤقتة، فمن يتصدى للأعداء، إذ لن يبقى بعد ذلك في المدينة إلا الشيوخ والضعفاء أو بعض الشباب، وكيف يمكنهم أن يقفوا في وجه الأعداء الذين يبلغ عددهم مئات الآلاف؟ فقال أبو بكر: إذا كنتم لا تقدرون على التصدي للعدو، فسأخرج لمحاربته وحدي.

لقد خرجت هذه الكلمات من فم شخص لم تكن عنده خبرة عالية بفنون الحرب والقتال، وكان يقال إنه رقيق القلب. فمن أين استمد هذه الشجاعة والبسالة وهذه الثقة واليقين، يا ترى؟ إنما سببه أنه ﷺ كان مدركًا أن الله تعالى هو الذي أقامه على منصب الخلافة، وأنه هو المسؤول عن كل الأمور، فمن واجبه أن يواجه التحدي، أما النجاح فبيد الله تعالى. فلو أراد الله له النجاح فسيجعله غالبًا، أما إذا لم يرد الله له النجاح فلن تحققه له جيوش الدنيا كلها. (تاريخ الخميس المجلد الثاني ص ٢٠١: ذكر بدء الردة، والطبري المجلد الرابع ص ٦٣: بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي)

ومن المواقف الأخرى الدالة على عظيم شجاعة أبي بكر أنه خاض الحربَ في وقت واحد ضد اثنتين من أقوى الدول في عصره، أعني ضد إمبراطورية قيصر وإمبراطورية كسرى، وذلك برغم أن خروجه ﷺ لمحاربة قيصر وحده كان يماثل خروج أفغانستان اليوم لمحاربة أمريكا أو إنجلترا. وبينما هو خائض في الحرب ضد تلك القوة العظيمة، بلغه أن الجيوش الفارسية تتأهب للهجوم على المسلمين، وأن أمارات الثورة والتمرد تلوح في المناطق الفارسية الخاضعة للدول الإسلامية، فأمر بشن الهجوم على الدولة الفارسية بدون تأخير. ولما قال له الصحابة كيف نقاتل هاتين القوتين العملاقتين في وقت واحد، قال لهم: لا تكترثوا لذلك أبدًا، بل اذهبوا وقاتلوهم. وبما أن المسلمين كانوا مشغولين بقتال الجيوش الرومانية، فبدا هجومهم على المناطق الفارسية أمرًا مستبعدًا لدرجة أنه لما بلغت الملك الفارسي أخبار تقدم الجيوش الإسلامية لم يكترث لها مطلقًا، وقال إنما هي أراجيف، إذ كيف يمكن أن يفكر المسلمون في الهجوم علينا وهم لا يزالون متشابكين مع عدو قوي في حرب خطيرة. فكان من أكبر دواعي هزيمة الفرس في المعارك الأولى أنهم لم يبعثوا من عاصمتهم أي جيش لمقاومة المسلمين، بل ظل ملِكُهم يظن أن هذه الأخبار ليست إلا أراجيف وإشاعات باطلة. ولكن لما بلغته الأخبار بشكل مكثف ومتواصل بعث قائدًا له ليستطلع الأخبار ويخبره بالخبر اليقين. فكتب إليه في تقريره أن المسلمين قد شنوا الهجوم بالفعل، وأنهم قد استولوا على مناطق كثيرة. عندها بعث الملك الفارسي جيشًا لمحاربة المسلمين.

وبوسعك أن تدرك من هنا مدى خطورة أن يفتح المسلمون جبهة جديدة للحرب ضد الفرس، وهم لا يزالون يحاربون الجيش الروماني على الجبهة الأخرى. ولكن هذه الأخطار لم تكن ذات شأن تجاه القوة التي شحن الله تعالى بها أبا بكر بعد أن أقامه على منصب الخلافة. فإنه لم يفكر من أين يأتي بالمسلمين لمحاربة الجيوش الفارسية، ولم يفكر كيف يمدهم بالعدّة والعتاد لحرب الفرس، بل إنه بمجرد أن سمع خبر تمرد الفرس أمر المسلمين بالقفز في نيران الحرب وفتح جبهة جديدة للحرب ضد كسرى. (الفخري ص ٧٨: شرح الحال في تجهيز الجيش إلى العراق واستخلاص الملك من فارس، ومحاضرات الأمم والملوك: المجلد الثاني ص ١٨٤-١٨٥ و١٩٠-١٩١، الطبري المجلد الرابع ص ١٥٩ سنة ١٢ الهجرية: مسير خالد إلى العراق وصلح الحيرة)

ثم لما صار عمر ﷺ خليفة أبدى نفس التوكّل الذي تحلّى به أبو بكر ﷺ، مع أنه هو الذي كان يقول لأبي بكر من قبل كيف نحارب هذه الجيوش الجرارة التي هي أكثر منا عددا وعتادًا؟ عليك أن توقف جيش أسامة من الخروج ليساعدونا ضد الثوار المتمرّدين. فإن عمر ﷺ نفسه فتح للحرب جبهتين: جبهةً ضد قيصر وجبهة ضد كسرى، ولم يبرح حتى أطاح بعرشيهما. ولما فُتحت فارس حُملت إلى عمر ﷺ خزائن كسرى وكان فيها منديل لكسرى، فأعطاه أبا هريرة ﷺ. وذات يوم أُصيب أبو هريرة بالسعال، فأخرجَ منديلَ كسرى ملك فارس وبصق فيه، وقال: بخٍ بخٍ أبو هريرة.. أي ما أعظمَ شأنَك يا أبا هريرة، حيث تبصق في منديل كسرى! فسأله الناس: لماذا تقول هكذا؟ فأجاب: لقد كنت في عهد النبي ﷺ يُغمى عليّ من شدة الجوع أحيانًا، فكان الناس يظنون أنه قد أصابتني نوبة من الصرع، فكانوا يضربون رأسي بالنعال. أما اليوم فترون أني أبصق في منديل ملك الفرس![✪]

✪ أقرب رواية وجدناها بهذا المعنى هي: عن محمد قال: كنا عند أبي هريرة، وعليه ثوبان ممشَّقان من كتَّان، فتمخَّط، فقال: بخٍ بخٍ، أبو هريرة يتمخَّط في الكتَّان. لقد رأيتني وإني لأخرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مغشيًّا عليَّ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع. (البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة، باب: ما ذكر النبي ﷺ وحضَّ على اتِّفاق أهل العلم...) *(المترجم)*

أما عثمان ﷺ فكان معروفًا بالحياء ورقّة القلب بل كان عند الناس اعتقاد بأنه ضعيف، ولكنه لما تولى الخلافة أبدى شجاعة نادرة حتى يندهش المرء برؤية مواقفه الجريئة. لقد تصدّى للمعارضة الداخلية بثقة تحيّر العقول.

وكذلك كان علي ﷺ، إذ لم يبال بأي معارضة أو خطر. وبرغم أنه كان محاطًا بالأخطار من الداخل والخارج، إلا أنه آثر مرضاة الله تعالى عند كل موقف ولم ينحرف قيد شعرة عن المشيئة الإلهية كما فهمها دون أي خوف من أي مخلوق.

إذًا، فإن الله تعالى قد حقق علامة ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ على يد جميع الخلفاء الراشدين بشكل واضح ورائع، ما يشكل دليلا قاطعًا على أن الله تعالى هو الذي أقامهم على منصب الخلافة، وهو الذي كفَل لهم التأييد والنصرة.

أتناول الآن الاعتراضات التي تُثار عادة بصدد هذه الآية.

الاعتراض الأول: يُقال أن الوعد الموجود في هذه الآية قد قُطع مع الأمة الإسلامية كلها وليس مع بعض أفرادها، أي أن الله تعالى سيجعل هذه الأمة كلها خليفة وليس بأنه سيختار بعض أفرادها خلفاء، والمراد أن الله تعالى سيُعطي المسلمين كلهم الحكم والغلبة وليس بأنه يجعل بعضًا منهم خلفاء.

والجواب الأول هو أنه مما لا شك فيه أن هذا الوعد قد قُطع للأمة كلها، ولكن هذا لا يمنع أن يتحقق هذا الوعد على يد بعض أفرادها. فهناك وعود تكون للأمة كلها، ولكنها تتم على يد الأفراد، ومع ذلك يقال إن الوعد الذي قُطع للأمة كلها قد تحقق. وهناك أمثلة كثيرة على هذا الأسلوب الكلامي في كل لسانٍ في العالم. فمثلا يقال في لغتنا: إن الإنجليز ملوك. فهل يعني هذا أن كل واحد من الإنجليز ملكٌ؟ كلا، لا يكون كل شخص إنجليزي ملكًا ولا يمكن أن يكون، ومع ذلك يقال إن الإنجليز ملوك. وكذلك يقال إن الشعب الفلاني حاكمٌ، مع أن كل الشعب لا يكون حاكما بل بعض أفراده يتولّون الحكم بينما يكون الباقون كلهم تابعين لهم. كذلك يقال إن الأمة الفلانية ثريّة جدًّا، ولكن هذا لا يعني أن كل فرد

منها يكون ثريًّا. فمثلا يقال إن الإنجليز أثرياء، مع أنه يوجد بينهم من يعيشون في فقر مدقع. لقد حكى لي أخي الأكبر المرحوم ميرزا سلطان أحمد ذات مرة أنه خلال أيام إقامته في لندن رأى في أحد الأيام أن خادمة البيت الذي كان مقيمًا فيه ألقت القمامة خارج البيت. فجاء أحد الإنجليز يفتّش القاذورات، فوجد فيها قطعة خبز فأكلها. كذلك رأيت أنا أيضًا نساءهم في منطقة "براند زي" وقد خرجن حاملات الأواني على رؤوسهن ليأتين بالماء من مكان بعيد، وقد رأيتُ معهن أولادهن في ثياب مرقّعة بقطع قماشية ذات ألوان مختلفة. وبرغم هذا الأمر الواقع يقال إن الأوروبيين أثرياء جدًا. فثبت أنه إذا قُطع وعد لقوم فلا يعني ذلك أنه لا يمكن أن يتم على يد بعض أفراد منهم، بل هنالك كثير من الوعود التي تُقطع مع الأمم وتتم على يد بعض أفرادها. ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:٢١). فهل بوسع أحد أن يثبت أن كل بني إسرائيل صاروا أنبياء؟ ثم هل يمكن أن يشك أحد في وجود فقراء كثيرين بين بني إسرائيل، ومع ذلك يقول لهم موسى ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾. إذًا، إنما المراد من هذا التعبير أنه إذا كان الملك من قوم فكل القوم ينتفعون من النعم والمنافع المتعلقة بالمُلك، ولذا يجوز القول إن القوم كلهم ملوك. إذًا، فما دام هؤلاء المعترضون لا يعنون بهذه الآية، رغم وجود كلمة ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، أن كل يهودي صار ملكًا، فلماذا يستنتجون من قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ أن هذا الوعد لا يمكن أن يتحقق من خلال بعض أفراد الأمة، وإنما المراد منه أن الأمة كلها تُعتبر خليفة.

ثم لو كانت الخلافة بمعنى الغلبة القومية التي ينالها المسلمون فمتى تتيسر هذه الغلبة لكل مؤمن؟ كلا، بل إن بعض أفراد الأمة ينالون الحُكم والغلبة دون الآخرين. فقد وُجد بين الصحابة فقراء كثيرون عاشوا في ضيق شديد حتى أيام غلبة المسلمين. فهناك قصة طريفة لأبي هريرة ﷺ وهي أنه خلال المعركة بين علي

ومعاوية رضي الله عنهما نـــزل الفريقان في موقع يسمى "صِفِّين"، وكانت المسافة بين المعسكرين قرابة ميل. وكلما حانت الصلاة ذهب أبو هريرة إلى معسكر علي ﷺ، وكلما حان موعد الطعام ذهب إلى معسكر معاوية ﷺ. فقيل له: أنت شخص عجيب، تذهب مرة إلى معسكر علي ﷺ، ثم تذهب إلى معسكر معاوية ﷺ. فأجاب أبو هريرة: أجد الصلاة عند علي جيدة، بينما أجد الطعام عند معاوية جيدا، فأذهب إلى علي ﷺ وقت الصلاة، وأذهب إلى معاوية وقت الطعام.

ونفس الحال لغير المبايعين*، فذات مرة كنت في منـــزل شودري ظفر الله خان المحترم، فأخبرني أحد الإخوة أن بعض غير المبايعين قال له: فيما يتعلق بالعقائد فإن المولوي محمد علي هو على الحق، وفيما يتعلق بالدعاء فإن أدعية حضرتك تستجاب عند الله تعالى أكثر. فترى أن قوله هذا يشبه قول أبي هريرة ﷺ تماما.

إذًا، فإن الناس يقولون إن الأمة الفلانية هي الحاكمة، وذلك برغم وجود الكثير من الفقراء بينها، ولا يقال هكذا إلا لأن الأمة التي يكون الملكُ منها تنتفع أفرادها كلهم من منافع مُلكه على وجه الخصوص. وبالمثل تماما إذا نال بعض أفراد الأمة الخلافةَ فيقال إن الأمة كلها قد نالت نعمة الخلافة، ولا يستلزم ذلك أن ينال كل فرد منها هذا الإنعام.

وهناك مثال آخر على هذا الاستعمال حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنـــزلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنـــزلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾(البقرة:٩٢).. أي حين يقال لليهود آمنوا بما نـــزل في القرآن الكريم يقولون ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنـــزلَ عَلَيْنَا﴾. ومن الواضح أن الله تعالى لم ينـــزل الشرع اليهودي على اليهود وإنما أوحى به إلى موسى عليه السلام، ومع ذلك قيل ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنـــزلَ عَلَيْنَا﴾. كذلك إذا

* يشير حضرة المفسّر ﷺ هنا إلى بعض الأفراد الذين لم يبايعوا على يده بصفته الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام، وانشقّوا عن الجماعة تحت قيادة المولوي محمد علي، وذهبوا إلى لاهور واتخذوها مركزًا لهم، وسموا أنفسهم "أنجمن إشاعت إسلام لاهور"، ويطلقون على أنفسهم في هذه الأيام تسمية عربية هي "الجمعية الأحمدية اللاهورية". *(المترجم)*

نـــزلت نعمة ربانية على بعض أفراد القوم فانتفعوا بها كلهم فيقال إن هؤلاء القوم كلهم قد نالوا تلك النعمة. ولما كان المُلك ينفع القوم كلهم فقال الله تعالى عن اليهود ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، وكذلك لما كانت الخلافة تنفع المسلمين كلهم قال الله تعالى لهم ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾.

والجواب الثاني هو أن فعل الله تعالى نفسه قد كشف المعنى الحقيقي لهذه الآية. إن الله تعالى يقول هنا ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾، فلو كان المراد من الخلافة هنا الديموقراطية فعلينا أن نرى أقامت الديموقراطيةُ بعد الرسول ﷺ أم لم تقم؟ أما لو كان المراد الرباني من ذلك أن يشرّف بعض أفراد الأمة بالخلافة، فيقال إن الأمة كلها قد تمتعت ببركات الخلافة، فعلينا أن نرى فيما إذا قامت الخلافة على هذا المنوال بين المسلمين.

وعندما ننظر إلى الأمر الواقع بعد وفاة الرسول ﷺ نجد أن بعض أفراد الأمّة نالوا الخلافة وليس كلّهم. إذًا، فإما أن يقول هؤلاء المعترضون أن المسلمين لم يعودوا بعد الرسول ﷺ من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، بل صار الجميع منافقين والعياذ بالله – كما يزعم الشيعة بأنه لم يبق من الأمة إلا اثنان ونصف من المؤمنين – ولذلك لم يتحقق لهم وعد الخلافة في الأمة، وإما أن يعترفوا بأن الطريق الصحيح للخلافة إنما هو ذلك الذي قامت عليه الخلافة بالفعل بعد وفاة الرسول ﷺ.

إذًا، فإن المنوال الذي أقام الله عليه الخلافة في المسلمين بعد الرسول ﷺ هو بمثابة شهادة ربانية فعلية، وهذه الشهادة الربانية الفعلية تؤكد أن الله تعالى سيحقق وعد الخلافة للأمة في المستقبل أيضًا على نفس المنوال أي من خلال بعض أفراد الأمة.

أما **الاعتراض الثاني** الذي يُثار حول هذه الآية فهو قول البعض: لنفترض أن هذه الآية تعني أن بعض أفراد الأمة سينالون الخلافة، ولكنك تسلّم بأن الخلافة في

الأولين كانت خلافةَ نبوة وخلافةَ ملَكيّة، ولكنك لا تعتبر الخلفاء الأربعة لا من الأنبياء ولا من الملوك؛ فكيف تحقَّقَ هذا الوعد؟ وكيف صاروا مصداقا لهذه الآية؟

والجواب أنه مما لا شك فيه أن الخلافة في السابقين كانت على شكل نبوة أو ملَكيّة، ولكن المشابهة بين شيئين لا تكون بالضرورة في كل النواحي، بل في الأمر الأساس. مثلا لو شبّهنا شخصًا طويلا بشخص طويل آخر، وكان الأول صالحا وعالما والآخر سارقا وجاهلا، فلا يجوز لأحد أن يقول كيف يصحّ هذا التشبيه بينهما مع أن أحدهما سارق والآخر صالح. ذلك لأننا شبهنا الواحد بالآخر من حيث الطول وليس في كل شيء. وهناك مثال لذلك في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾(المزمل:١٦). فأنت ترى أن الله تعالى قد شبّه النبي ﷺ بموسى عليه السلام، برغم أن موسى كان قد أُرسل إلى فرعون فقط، بينما لم يُبعث النبي ﷺ إلى ملك واحد بل إلى ملوك الدنيا كلهم. كما أن موسى عليه السلام قد بُعث لهداية بني إسرائيل فقط، بينما بُعث النبي ﷺ لهداية العالم كله. ثم لم يكن عهد نبوة موسى عليه السلام إلا تسعة عشر قرنًا، أما النبي ﷺ فرسالته ممتدة إلى يوم القيامة. هذه هي أهم الفروق بين موسى عليه السلام والنبي ﷺ، ومع ذلك يقول المسلمون إن النبي ﷺ جاء مثيلا لموسى. فإذا كانت كل هذه الفروق لا تقدح في المشابهة بين هذين النبيين فلِم يعترض هؤلاء على بعض الفروق الجزئية بين أحوال خلفاء الأمم السابقة وأحوال خلفاء الإسلام؟ إن الأمر الأساس الذي تؤكده هذه الآية هو أن الله تعالى كما اختار بحكمته الخاصة بعض الأفراد بعد موسى عليه السلام لجمع شمل أمته ولخدمتها، كذلك سيقيم الله تعالى بعد وفاة الرسول ﷺ أشخاصًا لجمع شمل أمته. وهذا الهدف قد حققه خلفاء الرسول ﷺ بشكل أفضل من خلفاء الأمم السابقة. ثم كما أن الله تعالى بعث المسيح الناصري بعد موسى – عليهما السلام – بثلاثة عشر قرنًا كنبي تابع خادم للشرع الموسوي، كذلك قد بعث الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام بعد النبي ﷺ بثلاثة عشر قرنًا وفتح باب النبوة التابعة للنبي ﷺ واللائقة بمكانته السامية والمنحصرة في أمته، كما أحيا من خلاله الخلافةَ في أتباعه ﷺ من جديد. فبدأت

هذه الخلافة بعد وفاته عليه السلام وهي مستمرة حتى زمن خليفته الثاني؛ ولو أن الجماعة الإسلامية الأحمدية ظلت مؤمنة بالخلافة وساعيةً لاستمرارها كما ينبغي فسوف يطُول تحقيق هذا الوعد بإذن الله تعالى.

وهناك في هذه الآية إشارة ربانية بالغة الأهمية يجب أن لا تنساها الجماعة الإسلامية الأحمدية، وهي أن الله تعالى قد قال هنا ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.. أي لكي تمتد الخلافة في المسلمين عليهم باتباع طريق الذين من قبلهم عند انتخاب الخلفاء.

ومن بين الأمم السابقة كانت المسيحية – دون اليهودية – هي الأمة التي لم تكن فيها الخلافة ملَكيةً، بل كانت خلافةً دينية بحتة. وهناك إلهام للمسيح الموعود عليه السلام باللغة الأردية يؤكد ما قلت وهو: "كليسا كي طاقت" (تذكرة ص ٦١٥: وجريدة "بدر" يوم ١٩ مايو ١٩٠٦).. أي قوة الكنيسة، والمراد من هذا الإلهام أن وراء قوة الكنيسة سببًا خاصًا، فخذوا هذا السبب والسر في الاعتبار والحسبان دائمًا. وكأن هذا الإلهام يوجه أنظارنا إلى اتّباع الطريق الذي بيَّنه الله تعالى لانتخاب الخليفة في القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.. حيث أمَرنا الله تعالى أن نتّبع لدى انتخاب الخلفاء الطريق الذي كان يتبعه الذين كانوا من قبلنا أو طريقًا مشابها لذلك. وأنت تعلم أن الخلافةَ المسيحية مستمرة منذ تسعة عشر قرنا نتيجة اتّباع المسيحيين هذا الطريق الخاص. لا شك أن المسيحيين لا يستمّدون من خلافتهم ذلك النور الذي كانوا يستمّدونه في بداية أمرهم لكون المسيحية الحالية قد انحرفت وفسدت؛ ولكن بوسع الجماعة الإسلامية الأحمدية أن تصوغ هذا القانون والطريق بحسب تعليم الإسلام حتى تستمر الخلافة بينهم مئات بل آلاف من السنين. ولذلك قد قمتُ بسنّ قواعد حول انتخاب الخلفاء في المستقبل، وأُؤمن بأن الجماعة الإسلامية الأحمدية لو ظلت مؤمنةً بالخلافة وساعيةً لاستمرارها كما ينبغي، فإن الخلافة ستستمر بينها إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى، ولن يستطيع أي شيطان أن يفسدها.

والاعتراض الثالث الذي يُثار ضد الخلافة هو قول البعض: إذا كان الله تعالى قد وعد المسلمين بالخلافة فلماذا انقطعت الخلافة بعد علي ﷺ؟

والجواب أن هذا الوعد كان مشروطًا، إذ تُصرّح كلمات الآية بكل وضوح وجلاء أن الله تعالى يقطع هذا الوعد لأولئك الذين يؤمنون بالخلافة ويقومون – كجماعة – بأعمال تساعد على استمرار الخلافة بينهم. ذلك لأن الله تعالى يقول هنا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والعمل الصالح في العربية هو ما يكون بحسب مقتضى الحال؛ وبما أن هذه الآية تتحدث عن الخلافة فالمراد من ﴿آمَنُوا﴾ أنهم يكونون مؤمنين بالخلافة، والمراد من ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنهم يعملون أعمالاً يستحقون بها استمرار الخلافة بينهم. فإذا لم يتوافر فيهم هذا الشرط لن يحقق لهم الله تعالى هذا الوعد. والواقع أن الخلافة بعد عليّ ﷺ لم تكن إلا خلافة شكلية، إذ تحوّلت إلى الملَكية عمليًا، ولم تهتم تلك الخلافة الشكلية بتبليغ دعوة الإسلام ونشره مع أنه شرط أساس للخلافة، فلما فات الشرط فات المشروط، وألغى الله تعالى وعده للمسلمين.

والاعتراض الرابع الذي يُثار ضد الخلافة هو قول البعض: ما دامت الأمة هي التي تختار الخليفة بطريق بالانتخاب فيجب أن يجوز لها عزله أيضا.

(An Interpretation of Islam, P.84-85)

والجواب الأول هو أنه مما لا شك فيه أن الخليفة يُختار بالانتخاب من قبل الأمة، ولكن في هذه الآية نصٌّ صريح على أن الله تعالى يتّخذ الأمة أداةً لتنفيذ قراره فحسب، وينوّر عقولهم عند الانتخاب بوجه خاص، بينما الواقع أن الله تعالى هو الذي يقيم الخليفة، لقوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. فبرغم أن انتخاب الخليفة يتمّ عن طريق المؤمنين، ولكن الإلهام الرباني يجعل قلوب القوم تميل إلى من يستحق الخلافة حقًّا عند الله تعالى، كما أنه تعالى يبّين هنا أنه يخلق في الخلفاء خصوصيات مميزة، وأنهم يكونون نعمة ربانية عظيمة. وعلى هذا سيكون تفصيل هذا الاعتراض كالآتي: ألا يحق للأمة أن تعزل شخصًا هو من الموحِّدين الكاملين، وأراد الله تعالى أن يُقيم دينه، ويدفع كل الأخطار عن الأمة من أجله، ويمحو الشرك على يده،

ويحفظَ الإسلام بجهوده؟ ومن الواضح أنه من المحال أن تعزل الأمة مثل هذا الإنسان، ولن يريد عزله إلا إخوان الشيطان.

والجواب الثانـــي هو أن الله تعالى قد استعمل هنا لفظ الوعد، والوعد يدل على الإحسان والإنعام، إذًا، فإن اعتراضهم هذا يعني أن الله تعالى ما دام قد جعل أمر انتخاب هذا الإنعام في يد الأمة، فيجب أن يكون من حقها أيضًا أن ترفض هذا الإنعام. وكل عاقل يدرك أنه استنباط بالغ الإساءة، لأن المرء إذا رفض نعمة عُرضت عليه بدون أن يسألها أصبح أشدَّ جريمة وأقام الحجة على نفسه. لأن الله تعالى سيقول في هذه الحالة: أيها الناس قد خيّرتكم في أن تأخذوا هذا الإنعام من خلال أي إنسان، فقلتم: نريد أن نتلقى هذا الإنعام في شكل فلان، فجعلتُ أفضالي مرتبطة بالشخص الذي اخترتموه؛ وبعد أن رضيت بقولكم أي بانتخابكم إياه رُحتم تقولون لسنا براضين بهذا الإنعام، وماذا عسى أن أجيبكم على رفضكم هذه النعمةَ إلا أن أقول ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم:٨). وإلى هذا المعنى نفسه قد أشار الله تعالى هنا في آية الاستخلاف أيضًا حيث قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أي لقد خيّرنا الأمة عند انتخاب الخليفة، كما قمنا بإرشادها لتختار الشخص المناسب عند الانتخاب، ثم اصطفينا هذا الإنسان المنتخب واخترناه لنا، فلا يبقى بعد ذلك للأمة أي خيار في عزله. ومن أراد أن يأخذ هذا الخيار بيده فعليه أن يعلم أنه لا يعارض الخليفة، بل يكفر بنعمتنا؛ فإذا كان هو لدى انتخاب الخليفة في عداد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإننا سنمحو اسمه من قائمة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وندرجه في زمرة الفاسقين من جراء هذه الخطوة الخاطئة من قبله.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. بعد أن أوضح الله تعالى في آخر الآية السابقة ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حثّ هنا فورًا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ وذلك لينبّه المسلمين أنهم إذا وجدوا نقصانًا في نـــزول بركات

الخلافة، فعليهم كقوم أن ينهمكوا في إقامة الصلاة وينشطوا في أداء الزكاة ويطيعوا الرسول ﷺ طاعة كاملة، وإذا فعلوا ذلك شملتهم الرحمة الإلهية، فسيقيم الله تعالى نائبًا لرسوله ﷺ يجمع المسلمين على يد واحدة مرة أخرى. باختصار لن يدع الله تعالى منكري الخلافة غالبين على الأرض أبدًا، بل سيقيم مِن عنده أناسًا يؤمنون بالخلافة ولو كان إيمانا جزئيًا. وبالفعل ترى أن الخوارج الذين قد أنكروا الخلافة لم ينالوا الحكم في الأرض أبدًا، بل كانت الغلبة دائما لأهل السنة الذين آمنوا بالخلافة ولو بلسانهم، وأقول "ولو بلسانهم" لأنهم لم يضحّوا بأرواحهم في عهد عثمان وعلي – رضي الله عنهما – دفاعًا عن الخلافة.